من فكر السجون وأدبه
الإصدار الثاني والعشرون

مؤسسة مهجة القدس
MUHJAT ALQUDS FOUNDATION

دَيا جِسرُ الألَم

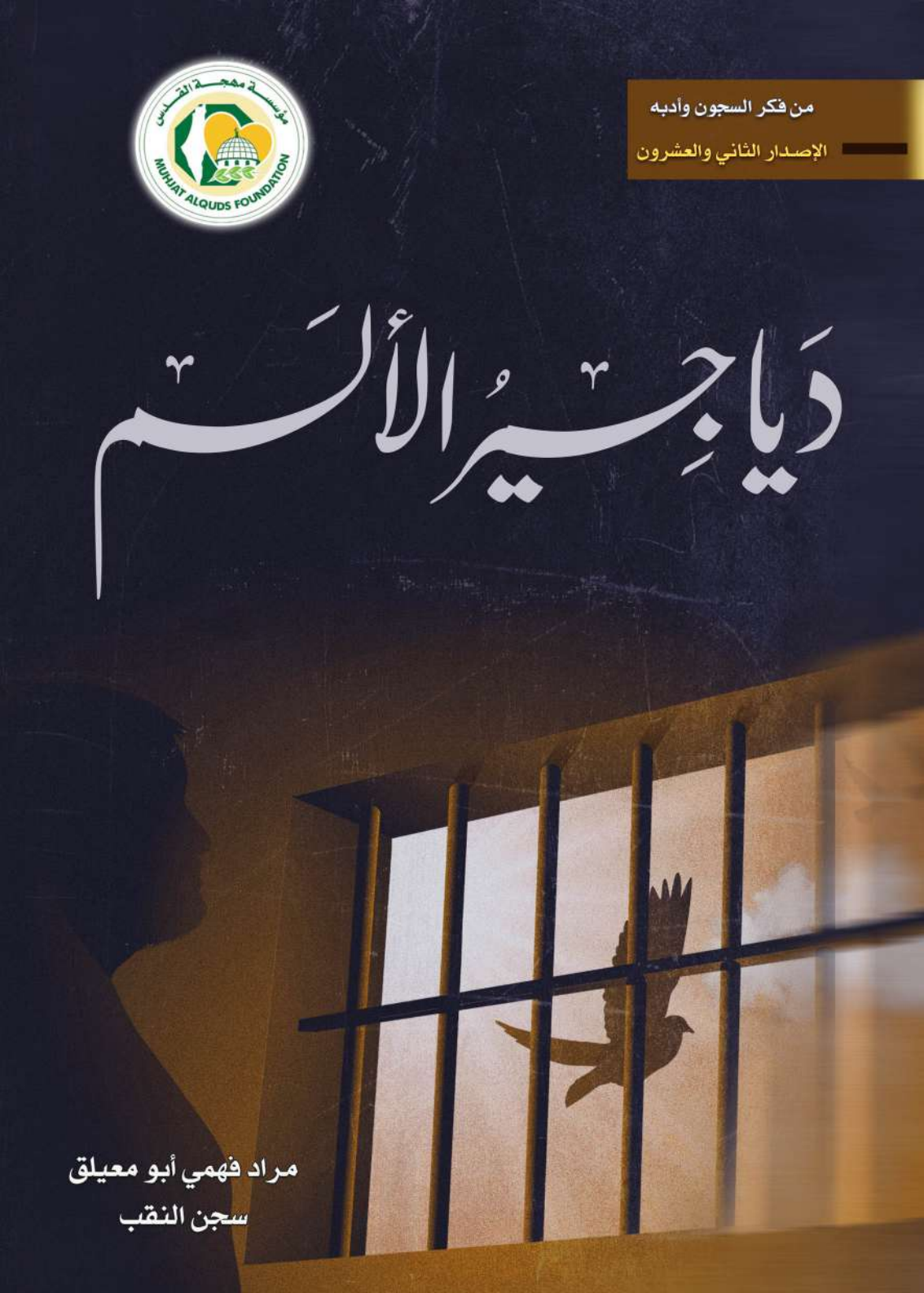

مراد فهمي أبو معيلق
سجن النقب

دياجير الألم

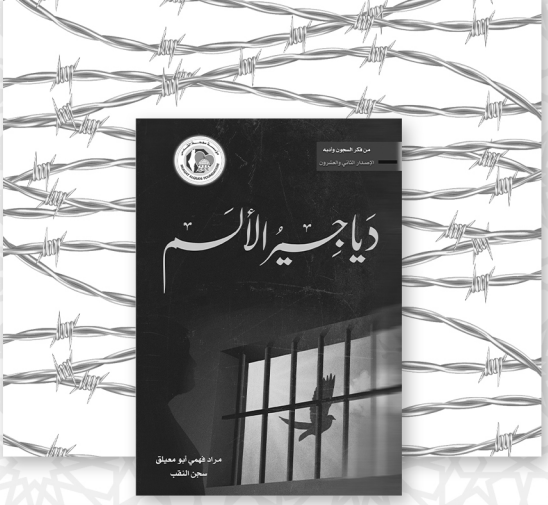

الكتاب: سلسلة فكر وأدب السجون (22)

دياجير الألم

المؤلف: الأسير المجاهد/ مراد فهمي أبو معيلق

الناشر: مؤسسة مهجة القدس

غزة – فلسطين

الطبعة: الأولى

سنة النشر: رمضان 1444هـ
مارس - آذار 2023م

رقم الإيداع: 1983 / 2023

الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة
عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس

حقوق الطبع والنشر محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾

صدق الله العظيم [الرعد: 24]

إهداء

• إلى أمي التي شاخت وهي تهتف بالحرية المسلوبة عبر بوابات السجون، وسلكت الصعاب على حد السكين لأكثر من عشرين عامًا بحثًا عن حريتي وحقوقي التي سلبها الاحتلال.

• إلى كل أمهات الأسرى والشهداء.

• إلى والدي الذي ضحى بحياته ولم يحرمني شيئًا على مدار حياتي وبقي مساندًا لي منذ أن أبصرت النور حتى دخولي ظلام السجن.

• إلى رفيقة الدرب «مها» فهي ليست أختًا فحسب بل ابنة.

• إلى كل أبناء شعبي الصامد.

• إلى زملائي الأسرى والأسيرات.

• إلى المقاومة الفلسطينية التي نعلق عليها الآمال لتحقيق الحرية بعزة وكرامة.

1

أنا على ما أذكر كان لي اسم، نسيت اسمي، ليس هناك داعٍ للاسم، أنا المعتقل رقم 1120646 لا يهم، إنها مرارة السجن.

سجنت لفترة طويلة لأكثر من عشرين عامًا، بين أربعة جدران مع أكثر من ألف رقم غيري، نسيت شكل الشمس، نسيت شكل الضوء والحياة؛ لأني لا أعرف سوى اللون الأسود.

عندما كنت صغيرًا، كنت أستمع لقصص جدتي، وهي تروي لي عن الوحوش، لم يدر بخلدي أنهم حقيقة يعيشون ويتنفسون ويتحكمون بنا، يضعون السلاسل الحديدية بأيدينا وأرجلنا، ثم يقومون «بمساج»

لأجسامنا، ومن بعدها يقومون بتعليقنا من أعناقنا لنصبح بصورة لائقة أمامهم، تلك الوحوش الكبيرة التي قامت بتشريح لحمنا وضربنا على رؤوسنا وشدنا من شعرنا بحال أغمض أحدنا جفنه، لم أستطع نسيان وجوههم، زنزانة لم تتجاوز مساحتها مترين، والتعذيب المستمر طوال الليل والنهار، ينقص رقم، يأتي ذلك الوحش برقم جديد، لم نستطع تمييز الليل من النهار، ولا توجد أوقات محددة للنوم، لا يمكن لنا أن نمد الذراعين والساقين سويًا، نتناوب على النوم بتلك الغرفة الصغيرة، بالنسبة للطعام نصف رغيف «تهالك من مضغة القوارض» وأوقات كثيرة بدون طعام كعقاب مقصود، منع أهلنا من زيارتنا، مُنعت أجسامنا من تلقي العلاج، منعوا جروحنا من الدواء، ما أصغرها تلك الروح! اقتحامهم المستمر لنا، واستفزازنا بكل أشكال الوقاحة، منع الكثير من تأدية الصلاة، حتى دخول «الحمام» لم يسمح لنا؛ رغم ذلك، رغم الضيق كنا نقف كالبنيان المرصوص؛ لتأدية صلاة الفجر جماعة في السجن.

حسنًا تذكرت اسمي، فكيف أنساه وأنا المتمرد على ظلم السجن؟، أنا الأسير مراد أبو معيلق، ولدت ونشأت وترعرعت في مخيم النصيرات في قطاع غزة، في ظل أسرة متماسكة ملتزمة بواجبها الديني والوطني مكونة من أب وأم وإخوة وأخوات، وشاء القدر أن يكون ترتيبي الثالث بين الجميع، اعذرني يا أبي إن لم أعد إليك حينها شهيدًا، وبكاؤكِ يا أمي خبئيه عند عودتي إليكِ قريبًا، فلابد لليل أن ينجلي.

كلاهما _أمي وأبي_ علماني حب الوطن بقلب مرهف للشهادة، عاشق أرض فلسطين.

أنا اسمي مراد...، لا أعرف سوى اللون الأسود، من سنوات يلقبونني بالفينيق ربما لأننا متشابهان نحيا من رمادنا بكل مرة نتلقى فيها ضربة توصلنا للموت، أنا ليس برقم؛ بل أنا المعتقل بسجون الاحتلال الصهيوني مراد أبو معيلق.

منذ نعومة أظفاري وأنا أكره الاحتلال الصهيوني وأتمنى زواله، حب فلسطين جعلني كطائر الفينيق عصيًا على الانكسار، بدأ ظلم الاحتلال وجبروته الذي تجرعته منذ كنت طفلًا إبان سياسة تكسير العظام في الانتفاضة الأولى، ومرورًا بتاريخنا المثخن بالمجازر والمذابح إلى أن دنس رئيس حكومة الاحتلال شارون، المسجد الأقصى في الثامن والعشرين من سبتمبر (أيلول) في الألفية الثانية؛ الأمر الذي شعر فيه الفلسطينيون بالإهانة والذل لانتهاك الأقصى؛ فهبوا لطرد شارون وجنوده من أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين الشريفين، ورد المدافعون المتقدمون بصدورهم العارية بصرخات الله أكبر، وبما جاد به المسجد من أحذية.

سالت الدماء في باحات المسجد الأقصى ونقل الصحفيون الأحرار من أبناء شعبنا وأمتنا من همجية الاحتلال وجبروته، وهو يمعن القتل في ضيوف الرحمن رواد الأقصى والمدافعين عنه، تداعى الأحرار لأولئك المظلومين من ربوع وطننا الذي أثخنته جراح المجازر والمذابح والانتهاكات على مدار تاريخه الطويل.

هكذا هم أبناء شعبنا رغم مرارة الألم وإمعان الاحتلال إلا أنهم يتشاطرون المعاناة من واقعهم المؤلم ومستقبلهم المجهول، يلبون المظلوم،

يتقاسمون الكسرة، يعينون على نوائب الدهر، ويكرمون الضيف خاصة إن كان ضيفًا مسكينًا يطارده شبح الاحتلال.

أشهرت غزة والضفة وكل فلسطين والداخل المحتل الدماء التي سالت في باحات الأقصى الشريف؛ فهبت مظاهرات غاضبة عبَّرت فيها حناجر الغاضبين عن رفضهم لانتهاك الاحتلال وظلمه، وصرخت تطالب بالرد على الاحتلال وعربدته؛ فأعمل الاحتلال فيهم أدواته القاتلة، فلا تكاد تمر بشارع من شوارع الوطن العزيز إلا وتجد فيه بيت عزاء لشهيد، صورة لأسير.

شعر الجميع حينها بالعجز وقلة الحيلة وانعدام الوسيلة لإلجام الاحتلال الذي تمادى في عدوانه، عبّر الشبان حينها عن غضبهم برشق الاحتلال بالحجارة والمقلاع، لكن هذه الوسيلة لم ترقَ إلى مستوى الرد المرغوب أو إلى حجم حالة الغليان التي تثور في الصدور، خاصة وأن جنود الاحتلال كانوا يتحصّنون بحصون منيعة تمنعهم من أن يُمَسّوا بأذى المتظاهرين بل زاد الطين بلة إمعان الاحتلال في قتل المتظاهرين الغاضبين الذين يعبّرون عن غضبهم بحجارة لا تخدش الطلاء الذي طلي به الجيب أو الدبابة.

أدرك الجميع حينها مدى الحاجة لتغيير هذه الوسيلة بوسيلة أكثر فتكًا وأشد إيلامًا لوقف آلة القتل والدمار التي يفعلها الاحتلال ضد أبناء شعبنا البواسل، كنت أنا واحدًا من بين الجميع، وواحدًا من أولئك الذين قهرتهم مشاهد الجثث وطائرات الأباتشي تقذف بحممها علينا فنفترق كسربة من خيالة داهمهم خطر.

كان الشبان يتساقطون كأوراق التوت في فصل الخريف، بل يرتقون من حولي إلى العلا والدموع تذرف من عيني حزنًا، ألا سبيل لكبح تلك الطائرات، ولا وسيلة لوقف عربدة المحتل وظلمه وجبروته، في مفترق الموت أو مفترق الشهداء كما يسميه الغزيون الذي خرجت منه من موت محتم مرتين؛ هالتني وأدهشتني النجاة من كلا الموتين، وممّا هالني أكثر وصدمني وأدهشني أيامًا طويلة أن أخطأتني رصاصاتهم وأصابت من هو دوني بعشرات الأمتار حيث أصابت صديقي الذي كان يبعد عني بعشرين مترًا.

محيط مستوطنة نتساريم حدثت فيه العجائب، أب وولده الصغير محمد يعودان من مدينة غزة إلى حيث مخيمهم مخيم البريج، لكن مسيرهم إلى البيت لم يبلغ مداه في ذلك المفترق (مفترق الموت) فتح جنود الاحتلال نار رشاشاتهم على الابن وأبيه فيحتمي الطفل بأبيه الذي تلقى الطلقات عن ولده فيأويان إلى جدار وزخات الرصاص لم تتوقف حتى تركت الابن جثة هامدة ووالده مصابًا.

لم يعد محمد إلى حضن أمه، ولم ينم في سريره، ولم يتناول طعامه الذي أعدته له أمه قبل خروجه مع أبيه، هكذا هم أطفال فلسطين يتحوَّلون لشتلة ياسمين تفوح رائحتها بكل حانات الوطن؛ لينبعث منها الأمل والحياة، لقوسٍ حجريٍّ على بواباتِ القدس، لخطٍ طويلٍ من الضوءِ على شواطئِ بحر غزة؛ ذلكَ لأنَّ صهيونيًّا يخافُ من كلِّ ما هو فلسطيني، ولأنَّ رصاصاته تتكلمُ قبله.

سلّم الطفل الصغير محمد الروح إلى بارئها، قضى نحبه مغدورًا مظلومًا، يحمل معه شكواه إلى ربه عن ظلم الاحتلال وجبروته، بينما والد محمد تلقى جسده أكثر من عشرين رصاصة، وكتب الله له أن يعيش كي يروي الحكاية.

على نفس المفترق توقفت سيارة ضمن السيارات التي أوقفها كالعادة جندي صهيوني يعيق حركة سير كاملة وهو يمازح صديقه، قاصدًا بذلك إثارة غضب المارة واستفزازهم، وتمضي الساعات تلو الساعات، كل ذلك للاستفزاز النفسي؛ ليزداد الجندي قساوة ليتسلى بمشاعر الفلسطينيين.

كان رجلًا بعمر الثلاثين وبجواره زوجته التي لم تعد ترى ملامح وجهها من شدة بكائها وصراخها، كانت تعاني من آلام المخاض، وكان زوجها متجهًا للمستشفى قاصدًا قسم الولادة في مدينة غزة، وهو يتوسل لجندي لعين للاستعجال لأجل زوجته حتى لا تفقد نفسها وجنينها، والجندي الصهيوني يعيق حركة السير قصدًا. محاولات الزوج المتكررة للعبور لم تنجح، يحاول أن يعبر بسيارته بين السيارات وبينما هو كذلك يبحث بسيارته عن فرصة للعبور، أملًا أن ينقذ زوجته وجنينها وإذ بجندي من أعلى البرج العسكري يفتح نيران رشاشه الثقيل باتجاه السيارة ومن فيها فيقتل الزوج وزوجته وجنينها، فاستشهدا سويًا مع جنينهما الذي لم يخرج للدنيا بعد ويراها.

ذلك الصهيوني نفسه يخاف من الجنين أن يولد ويكبر ويصبح مقاومًا، هم لا يعلمون أن أطفالنا وهم في بطون أمهاتهم يخلقون مقاومين ويهتفون بحب فلسطين.

2

كل الحواجز التي كانت مقامة على أرضنا المحتلة التي ستصبح حرة يومًا ما هي إلا مجرد حواجز زور للظلم والاستبداد، الكثير من النساء ولدن أمام الحاجز لمنعهن من الوصول للمستشفى ومن الاتصال بسيارات الإسعاف، أو حتى العبور من تلك الحواجز، حتى الجنازات التي تحمل بداخلها أرواحًا صعدت لبارئها... إلخ، كل هذا بحجة الأمن والتفتيش المزعوم.

تذكرت أيضًا تلك العجوز التي كانت تعاني من ضعف السمع، عندما أخذ جندي صهيوني يصرخ عليها ولم تستجب لثقل سمعها ومرضها، فأطلق النار عليها لتصبح جثة هامدة فاقدة للحياة.

لم يرحم الاحتلال إعاقتهم ولا مرضهم؛ لأنه يعتقد أن الفلسطيني الجيد هو الفلسطيني الذي تحت التراب. كنت أرى تلك المجازر وذلك الذل وتلك الأحداث العظائم وأسأل كأي فلسطيني: أين العرب؟ أين نخوة المعتصم؟ أما في حكام هذه الأمة من يغار على المسجد الأقصى كغيرة صلاح الدين الذي همّه أمر الأطفال وأمر فلسطين فحرك الجند عندما جاءته صرخة من المعذبين فيه تقول:

يا أيها الملكُ الذي لمعالم الصلبان نكّس

جاءتْ إليك ظلامة تسعى من البيت المُقدّس

كلُّ المسَاجد طُهرت وأنا على شَرفي أُدنس

كنت أتساءل مع نفسي كأي إنسان: أين العرب؟!، أين المعتصم؟!، بالله أين صلاح الدين؟!، أين النخوة؟!، هل ما بقي فقط هو الدعاء ولا حيلة إلا الدعاء؟!

فلسطين كانت تنزف وتنزف والإعلام فقط يصور وينقل الحدث، ينقل الدماء والصرخات النازفة بحثًا عمن يواسي فلسطين. أما أنا فلم أستطع الكتمان أكثر وأشتعل بغيظي وغضبي أكثر فأكثر، فأنا الفلسطيني المقاوم الغيور على دينه ووطنه. نقلت فضائيات عواصم الدول العربية صرخاتها ودمها النازف، ولا بواكي لفلسطين إلا من الذين لا حول لهم ولا قوة إلا الدعاء.

تزنرت بحزامي المحشو بالموت، وسلكت دربي أسابق خطواتي إلى معسكرهم اللعين الذي يحوي في داخله جنود الاحتلال وأعوانهم من العملاء، الذين زاهوا أنفسهم بالقتل. عزمت على الانتقام لكل الدماء التي سالت، واستطعت تخطي الخطوط الأمامية للجنود والوقوف في وسطهم، دار حديث بيني وبينهم، وأثناء الحديث قمت بتفعيل الشبكة الكهربائية لكنها لم تعمل، خلل طرأ على الشبكة الكهربائية منع دورانها، اكتشف الجنود أن الموت قصدهم ويحيط بهم؛ ففروا إلى سواترهم، ودب الهلع فيهم، والذعر ملأ قلوبهم، وأنا عدت أحاول تفعيل قنابلي، حاصروني كالسوار للمعصم، لا سبيل للمقاومة ولا سبيل للفرار.

أجبروني على خلع القميص للتأكد بأني لا أحمل سلاحًا على جسدي، وبعد التأكد من أني أصبحت أعزل لا أحمل سلاحًا؛ خرجوا من مخابئهم وجحورهم وتحلقوا حولي، وفي أثناء إحاطة الجنود بي أيقنت حينها أني داخل إلى السجن لا محالة، فخشيت منه وتساءلت في نفسي: كيف هو؟ ما شكله؟ كيف تدور الأيام فيه؟ هل سأصبر عليه؟ وأنا الحر الذي لا يطيق القيد ولا زحمة الناس؟ وكم سأمضي فيه؟! والسجن شيء لم يكن في حساباتي؟! هل هو كما روته لي جدتي بوصفها إياه كالكهف المعتم لا حياة فيه، كالمغارة المخيفة!، الكثير من التساؤلات أخذت تسري إلى ذهني.

هل أصبر عليه وأنا الحر الذي لا يطيق زحمة الناس؟، كيف سأمضي الوقت فيه؟

هذا السيناريو الخاطف أمام عيني مر كشريط سينمائي، نظرت إلى السماء والضربات تنهال نحوي مسرعة، داعيًا الله عز وجل، وصرخت بقوة: يا رب إن أردت أمانتك فخذها، وسرعان ما تذكرت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: 111]، وكأنها إشارة من ربي لقلبي لكل الأسئلة التي جالت بخاطري.

وأنا الذي كنت أقصد طريق الآخرة، طريق من سبقوني من الشهداء.

بعد هذا البوح الذي تضرع به قلبي إلى ربي؛ وكأنها إشارة ربانية نظرت لنفسي وجدت نفسي محاطًا بمغتصبين مشرعين أسلحتهم إلي، ولا سبيل للمقاومة أو الهرب منهم، ويا لمرارة السجن.

إذ بجندي عربي من بين الجنود يقول بصوت خائف وغاضب: أقادم لتقتلنا يا خائن؟ صرخت فيه موبخًا: أنت الذي خان ربه ودينه وشعبه وخدم في صفوف الظالمين. أصابني بعدها جندي آخر من جنود قوات العدو بعيارات ثلاثة في كلتا قدميَّ، استقرت واحدة أسفل الركبة بقليل وانفجرت في العظم؛ فخلفت تهتكًا كبيرًا على طول الساق امتد إلى الركبة، وأما العيار الثاني فاستقر في نفس المكان وخلف نفس الأضرار ولكن في القدم اليسرى، وأما العيار الثالث فاستقر في أسفل الفخذ؛ فترك آثارًا كبيرة في اللحم والعظم.

أعاقتني هذه العيارات عن المشي سنة كاملة، تعرضت خلالها إلى الإهمال الطبي والمساومة على الاعتراف، سقطت أرضًا فانقضوا عليّ مثل كلاب ضارية وقعت على صيد ثمين، أحاطوا بجسدي المسجى على الأرض، وخلعوا ملابسي بقسوة وعنف، وبدأ التحقيق المدني والعسكري لإجباري على الاعتراف، وبدأ سيل من الأسئلة لا ينتهي وأنا صامت لا أجيب تحت وطأة التحقيق وقسوته وإحاطة الجنود بجسدي ونزيف دمي المتدفق من قدميّ؛ غاب وعيي فما عدت أشعر به، عاد إليّ وعيي وهم يحملونني على حمالة ويسيرون بي، ثم غاب مرة أخرى، ثم عاد إليّ وأنا في جيب عسكري. طلبت الماء فرفضوا أن يعطوني؛ ثم غاب وعيي مرة أخرى وضعوني على متن طائرة مروحية إلى مستشفى سوروكا في بئر السبع؛ فكان أول شيء رأته عيناي.

3

رغم المرض، رغم قلة الحيلة، بدأ التحقيق معي على الفور، وبدأت الأسئلة التي لا تتوقف، من محقق إلى آخر من نقطة البداية إلى نقطة البداية من جديد أحسست حينها بغصة. بشيء لا أستطيع التعبير عنه. منعوا جروحي من الدواء.

منعت من وجبات الطعام الثلاث التي كانت توزع على المرضى كأنني لا وجود لي شعرت بمرارة الجوع، صرخت فيهم موبخًا لائمًا أساليبهم القذرة لكن دون جدوى.

وعلى صوت صراخي ذات مرة جاءت امرأة بعمر الخمسين، وقفت بجوار الباب تحمل بيدها زجاجة عصير وعلبة بسكويت، كانت خائفة جدًا من أن يراها جندي صهيوني في المكان وهي تحاول أن تسقيني وتطعمني، نظرت إليها مشجعًا، تقدمت قليلًا فنهرها ذلك الحارس بصوته الفظ عندما لاحظ تقدمها نحوي، ثم عاودت المحاولة مرة أخرى، فألقت ما بيدها نحوي، فالتقطت زجاجة العصير وعلبة البسكويت، ولم يستطع الحارس أخذهما من يدي؛ رغم أني مقيد من الساقين، لم يجرؤ على أخذها؛ لأنني ثرت عليه، وكل ما فعله أن أخفى زجاجة العصير وعلبة البسكويت؛ كي لا يعاقبه مسؤولوه، شعرت أن المرأة الخمسينية تراقبني وتبحث عني، وبالفعل مرت ست سنوات والتقيت أبي، على شباك الزيارة أخبرني أنه أرسل امرأة بدوية ومعها طفلها؛ لتبحث عني في مستشفى سوروكا ببئر السبع؛ لكي يعرف أحوالي ويطمئن على صحتي، فأخبرني عن صنيعها معي، واستدرك أن الصهاينة أمسكوا بصغيرها وأوقعوا عليها غرامة مالية.

دارت معارك في المستشفى، معارك من الشتائم بيني وبين الحراس، وأحيانًا بيني وبين المرضى والممرضات الذين ضاقوا بي ذرعًا، خضت إضرابًا عن الطعام وكان أول إضراب أخوضه في السجن احتجاجًا على إهمالهم الطبي؛ بعد محاولات عدة وإضرابي الذي استمر لأيام طويلة جاءني عدة أطباء، ووعدوني بإصلاح أحد الجروح من جروحي الذي كان بالغ الخطورة، وادّعوا أنه لا يمكن إجراء عملية للجرح وأنا أخوض إضرابًا عن الطعام، قالوا: «لابد من أن تأكل كي يتسنى لنا خوض العملية وأنت بصحة تتحمل ذلك».

لم أتمنَ أن تأتيني المنية بالسجن، لا أريد أن أبعث يوم القيامة في أي منفى؛ لأنني سأكون مضطرًا أن أسير كثيرًا لكي أصل ربوع وطني، أخذت خطوة في تعليق الإضراب ريثما أرى صحة كلامهم من كذبه، في اليوم التالي أبلغوني بقرار ترحيلي من مستشفى سوروكا إلى مستشفى الرملة، وبطريقي من مستشفى سوروكا في بئر السبع إلى مستشفى الرملة انتابني القلق وحالة من التوتر، فمستشفى الرملة مكان لم أسمع عنه، مكان مجهول بالنسبة لي، ظننت أني ذاهب إلى التحقيق العسكري مرة أخرى.

أخبرهم الضابط أننا وصلنا المستشفى، وأمرهم بفتح الباب الكهربائي الكبير، وأنزلوني من سيارة الإسعاف وأنا مسجى على نقالة، وذهبوا بي باتجاه باب السجن الداخلي، ومن بعيد كنت أرى شخصًا بيده عصاه يخطو بين البابين ذهابًا وإيابًا، تأكدت حينها أنه سيبدأ معي بتحقيق عسكري مرة أخرى، ثارت في داخلي مشاعر الخوف والقلق، وعزز هذه المشاعر أني جريح، لا أستطيع الوقوف على قدميّ؛ نتيجة العيارات المتفجرة الحاقدة التي هشمت عظامي ومزقت لحمي.

لساني لم ينفك عن الدعاء والذكر، وقلت في نفسي إذا كان هذا قدري فليس لي إلا أن أواجه قدري ببسالة وبطولة.

مستشفى الرملة، لم تكن مستشفى كالمستشفيات المتعارف عليها، لا يوجد بها أطباء وممرضون مختصون وأجهزة طبية، كافية وما يحتاجه المريض لتلقي العلاج.

سجن بالفعل، إنه سجن نظرت في السجن من كل الاتجاهات، الكآبة تنبعث من كل أنحائه، أسلاك شائكة في كل مكان، كلاب ضارية، رؤياي أثار غضبها وكادت أن تمزق عقالها كي تنهش لحمي أو كأن رائحة دمي أثارت شهيتها، حراس في كل مكان، الحارس يفتش الحارس لا أمانة ولا حصانة لأحد، أسوار شاهقة ذكرتني بما قرأت بكتب السيرة النبوية عن حصون خيبر، فوجئت أن قسم الأسرى المرضى بسبب الإهمال الطبي المتعمد من قبل الاحتلال الصهيوني. قسم كسائر أقسام السجون الأُخرى، التي يتواجد فيها الأسرى الفلسطينيون. من يعالج هو نفسه الذي يغلق الباب ويضع القيد على يديك بدون رحمة مقيد الساقين لساعات طويلة على الرغم أن معظمهم مصابون بأمراض مزمنة أعاقتهم بسبب الإهمال الطبي الذي أعتبره اغتيالًا يسري ببطء فقلت في نفسي ما ركنت إلى الدنيا ولا لأجلها خرجت، وما دفعني إلى المقاومة إلا الطلب لله والدفاع عن المستضعفين من الأطفال والنساء من أبناء شعبنا المعذب، ومرارة الظلم وصد العدوان، وما هذا الذي أنا فيه إلا ضريبة الشرف والعزة والنصر.

كان إيماني بعدالة قضيتي يخفف من معاناتي وآلامي، إيماني بما يدخر لي ربي يجعلني أعكسه ما ألقاه من لأواء الطريق عنده، أدخلوني إلى مستشفى سجن الرملة، أو بمعناها الأصح كما يسميها نزلاؤها مسلخ سجن الرملة، أخذ الحارس ينادي: أكرم! أكرم! استأنست بالاسم وإذا بأكرم شاب ثائر مكافح من الأسرى المصابين يتعهدهم بالخدمة والرعاية، تعرفنا على بعضنا البعض، والحقيقة أني كنت في حالة مُزرية، بدأ أكرم يتحدث معي، فكان أول سؤال متى جرى اعتقالي؟، أجبته منذ أكثر من شهرين وأنا في

مستشفى سوروكا، بنبرةٍ مازحة مع أنّ رغبتي كانت ملحّةً في البكاء، إلا أنّني بقيت طوالَ الوقت صامدًا.

رد أكرم: ثمانية أيام. لقد سمعت خبر اعتقالك، تذكرت سؤاله، فأنا قلت منذ شهرين، يبدو أن الأيام استطالت في ذاكرتي لقسوتها.

فالتطوع لمساعدة الأسرى المرضى والاعتناء بهم فترة متواصلة هي مهمة صعبة، فأكرم يستحق التكريم والتقدير من الجميع.

4

نقلوني إلى غرفة الغيار كي يروا جراحي ويغيروا عليها، حين رأى أحد الحراس جروحي الغائرة ولحمي الممزق الممزوج بدمي الذي لم يتوقف عن السيلان، عاد إلى الوراء مندهشًا وشتم دينهم كيف يأتون بي إلى هذا المكان وأنا على هذه الحالة المزرية؟!

يا لسطوة الألم وجموده! يا لعجز الحركة! كنت أتمنى النوم كما ينام الناس ولو ساعة واحدة بدون تأوه وأنين، فدموع العين أخفيها، لكن دموع القلب من يخفيها؟! كنت أتمنى الذهاب بمفردي دون مساعدة أحد في قضاء حاجتي أو الاستحمام، فكيف السجن حول أحوال من كانت

أمنيته تحرير الوطن يتمنى أن يذهب لدورة المياه بمفرده دون مساعدة من أحد، كانت قدماي اللتان هشمهما الرصاص وطوقهما البلاتين من كل اتجاه، وجراحي البالغة تحول دون تحقيق هذه الأمنيات. وجدت أن طريقة المقاومة قد تغيرت في السجن، ووسائل النضال تبدلت وأصبحت أناضل من أجل انتزاع حقي كي أرتاح قليلًا وأنسى الألم وأنين الأرق، كنت لا أحتمل هواء المروحة ولا نسمة هواء تأتي على استحياء أن تهوي على قدميّ، ولا حتى الغطاء يمسها ويمسها شيء آخر، كنت أقلبها بدفء ورفق بيدي كل خمس دقائق كي يخف من حدة الألم.

لجوئي لدورة المياه لقضاء الحاجة كان معركة بالنسبة لي؛ بل أشد من المعركة، ليس أمامي في هذه المعركة إلا أن أستسلم لمن يحملني ويضعني على الكرسي المتحرك المدولب بأربع عجلات ويسير بي إلى حيث دورة المياه؛ ثم يعيدني لسيرتي الأولى: إنزالي من على السرير وإعادتي، رحلة من الألم والمعاناة ثقيلة على قلبي عند إعادة تذكره.

رافقني في مسلخ سجن الرملة أسير أصيب فقطعوا ساقه، كنت أنظر إليه ينام دون ألم يأكل ويشرب بدون تأوه ومعاناة، فيجول بخاطري: يا لحظه ما أسعده! ويا لقدري مع الألم! هشموا عظامي، ومزقوا لحمي، وقيدوا حركتي بعياراتهم المتفجرة التي ألقتني سجينًا عامًا كاملا على سرير المرض، لقد كنت أدعو الله وأتدثر إليه بالدعاء في كل وقت أن يشفيني من هذا الألم، ويكتب لي أن أعود أسير على قدميّ كما كنت، كرهت السرير، لم أعد أطيق الاستلقاء عليه ما أصعب أن يحكم على الإنسان أن يعيش عامًا كاملًا مستلقيًا على ظهره! كنت إذا شعرت بتعب بسبب ظهري من

الاستلقاء اعتدلت جالسًا، ثم عدت للاستلقاء، ثم عدت هكذا بين هذه الجلسة وتلك، لا خيارات بالسجن.

كانت الناس ترى جراحي في قدميّ، لكن جرح قلبي على فوات الشهادة لم يره أحد، كنت برفقة صديقي الكرسيّ المدولب الذي أصبح يلازمني، بالتعرف على نزلاء سجن الرملة لعلي أجد من هو يحدثني وأحدثه وينسيني ألم الوجع.

في صباحي الأول في مسلخ سجن الرملة أحضر لي الإخوة من الأسرى ما تيسر من الفطور، ووضعوه على طاولة بلاستيكية زيتية اللون مهشمة من الجانب لا تصلح للتقديم؛ لكنها تؤدي الغرض، وقربوها مني، فنظرت بطرف عيني للخبز المقدم هذا ليس خبزنا، ليس خبزنا الذي تربينا عليه، خبز الطين، إنه ليس خبز أمي.

مضغته يمينًا وشمالًا، لم يمضغ، إنه قاسٍ. عصي على المضغ أخرجته من فمي وكأن شيئًا لم يكن، حينها أحاطني الشوق والحنين وتذكرت خبز أمي وتذكرت عندما كنت آكل الطعام من يدها الممزوجة برائحة الوطن، فالسر ما كان في الخبز ولكن في يد أمي.

أخذت أتعرف على نزلاء مسلخ سجن الرملة الذي كان من ضمنهم أبو الحسن المقدسي كان رغم حزنه متمردًا أراه كقوس قزح لألوان سبعة، ألاحقه كطفل يلاحق فراشة في أرجاء البستان، ربما هو الذي جعلني أهون على نفسي عناء التعب والمشقة؛ فهو رجل ثائر، صابر، محتسب، يناطح برسالته التي يحملها، ويلبي في كل ميدان دعته إليه فلسطين وشعبه، لطالما

كانت مجلة البيادر تتزين بمقالاته الثائرة التي يفرغها فيها، أثناء زيارته من قبل زوجته الصابرة التي ما نكثت عهدها يومًا وما تأخرت عن زيارته، طافت وراءه كل السجون وهو يتنقل من سجن إلى سجن، ولطالما حدثني عنها وعن حبه لها.

بعد عودته من الزيارة أذهب إليه لأبارك له بالزيارة، كان يشرع بالحديث عما أخبرته به زوجته من أحوال الأهل وعلى محياه ابتسامة، ابتسامة طفل صغير وجد أمه بعد طول غياب، أقول له: «أهذه الدرجة ولهذا الحد بلغ حب أم الحسن في قلبك؟»؛ قال لي: «بل أكثر من هذه الدرجة وهذا الحد»، وبدأ يحدثني عن وفائها وأصالتها.

هكذا هن النساء الفلسطينيات، ماجدات في كل ميدان تجدهن يخدمن القضية، دون تخاذل ولا تكاسل، هن كالزهرات النافعات كالروفان.

قضى أبو الحسن نحبه في السجن عام 2004م عن عمر 68 عامًا، بعد أن أمضى عشرين عامًا فيه، في عام 2001م بينما أنا على سريري، كان أبو الحسن يجلس على كرسي وأمامه طاولة وفي المقابل كان يجلس بجواره أسير يدعى أبو النادر الذي حكم عليه بالمؤبد مدى الحياة، أمضى في السجن واحدًا وثلاثين عامًا، أفرج عنه بصفقة وفاء الأحرار، كانا يلفان الملفوف ويتحدثان، ففي السجن لا يوجد مكان مخصص من أجل طهي الطعام حيث يتم ذلك في ممر ضيق بين غرف المستشفى وقد يتعرض للتلوث، ولهجوم الجراثيم والقوارض المنتشرة في الهواء مع كل فصول الأيام، شدني حديثهما، يقول أبو الحسن لأبي النادر: «أتذكر قبل سبعة

عشر عامًا يوم أن أتينا بالبوسطة، وأخبرتني أن تحريرنا من هذه السجون قاب قوسين أو أدنى معولًا على الجندي الصهيوني الطيار المخطوف رون أراد»، قال: أذكر ذلك جيدًا؛ قال أبو الحسن: «وها نحن مرّ علينا سبعة عشر عامًا ولا زلنا بالمؤبد»، وفي إحدى جلسات الأسرى التي يتبادلون فيها القصص والتجارب روى أبو الحسن المقدسي رؤية رآها في منامه في أول أيامه للتحقيق، قال إنه رأى في منامه أنه سيفرج عنه بعد عشرين؛ فقال: «لعلها عشرون يومًا»، استأنس بما رآه ودعا ربه أن يعجل بالفرج؛ ولكن الأيام العشرين مرّت عليه وهو ما زال في التحقيق؛ فقال: «لعلها عشرون شهرًا».

مرّت الأشهر العشرون وهو في السجن، بعد أن خرج من التحقيق خرج وقابل أصحابه قال إنها عشرون عامًا في السجن وهو يروي لنا القصة، قال: «أنا الآن أمضيت سبعة عشر عامًا بقي لي حتى أتم العشرين ثلاث سنوات»، أبو الحسن لم يعلم أني رأيت في منامي رؤية تتوافق مع رؤياه مما يؤكد أن الفرج بعد ثلاث سنوات كما كان يتوقع أبو الحسن، رأيت نفسي أنه سيفرج عني بعد ثلاث سنوات من اعتقالي، رأيت أني أسير على قدميّ؛ ما عزز في نفسي أن ما رآه أبو الحسن وما رأيته رؤيا حق بشرنا بها رب العالمين.

كنا نتطلع يومها على أحداث لبنان الذي كان يخبئ فيه حزب الله مجموعة من الصهاينة كان اختطفهم ليحرر أسرى، كان شعورنا لدى الأسرى جميعًا المحكومين بأحكام سنوات طويلة المدى أن الفرج قريب، وما هي إلا أيام ونسمع خبر إعلان الصفقة.

في ظل هذه الظروف كانت تكثر الإشاعات، إشاعات الأخبار الكاذبة والتوقعات المبالغ فيها حتى إن الكثير من الأسرى كانوا يفسرون حركة النقليات التي كانت تقوم بها الإدارة لتجميع الأسرى المنوي الإفراج عنهم كي يسهل عليهم عملية الإفراج.

كان الغالبية من الأسرى يلتقون بأسرى حزب الله بالأحضان، كانوا يرسلون لهم بعض الأخبار ويتأكدون من بعضهم، ما دفع بعض الأسرى أن قاموا بتوزيع كل ملابسهم ومقتنياتهم الشخصية على الأسرى الجدد مؤمنين ببعض الإشاعات التي تقول بأن الإفراج بعد أيام، وبعد أن يثبت كذب الخبر وحقيقة الإشاعة يعيد الأسرى الجدد الملابس والمقتنيات إلى أصحابها.

5

اعتمدت مخابرات الاحتلال الصهيوني في مراكز التحقيق على حيلة خداعة من الإشاعة التي أكثرت من نشرها فكانت تقول للأسرى: «لم تحتملون كل هذا التعذيب؟ اعترف فإن الصفقة على الأبواب»، كثير من الأسرى غرّهم هذا الكلام واعترفوا ظنًا منهم أن الصفقة قريبة.

كثير من الأسرى غرّهم وعودهم التي تحدث بها أمين عام حزب الله حسن نصر الله عبر وسائل الإعلام؛ بعد أن قال: «سأجعل في كل بيت فلسطيني الفرحة»، أمضيت الأيام والشهور والسنين وأنا وأبو الحسن معولون على رؤية كل واحد منا أنه سيفرج عنا بعد ثلاث سنوات.

مضت السنوات الثلاث وجرت صفقة تبادل الأسرى لكنها لم تشمل إلا أسرى حزب الله، وأصيب الأسرى بحالة من خيبة الأمل، ولعبت دورًا في نفوس عوائل الأسرى، هذا الجرح آلمني؛ لكن جرح القلب من يطفئه، وأنا الثائر الذي يتمنى الشهادة ولم ينلها بعد.

في إحدى زياراتي إليه طلبت منه نصيحة وكأن هذا الشيخ لمس جرح قلبي فداواني بالتي هي أحسن، ومن أحسن من كلام رسول الله _صلى الله عليه وسلم_، سألته وهو يهم بالرحيل من هذه الدنيا أن أوصني، قال: «صاحب من الناس كبار العقول وجانب الجهال أهل الفضول».

مضت ثلاث سنوات وبعد أن أتم العشرين عامًا في السجن، جاءني خبر استشهاد هذا الثائر وأنا في سجن عسقلان، ما كان يعلم أن هذه الرؤيا ماضية بقضاء أجله بعد عشرين عامًا وهو في السجن، بعد خبر استشهاده جاءني خبر هيّج الأحزان في قلبي وأشعلها، يقول الخبر: «إن سلطات الاحتلال سلمته لأولاده في كيس أسود مقيد اليدين»، فلا احترام للميت. فكتبت أرثيه بهذه الكلمات وأنا أكفكف دموعي حزنًا عليه:

«أبو حسن أبو هدوان» أسير مقدسي، جار الأقصى، أحب فلسطين وكأنّ فاه وهو يصارع الموت يقول: «اكتبوها على شاهد قبري بالخط العريض إذا أنا مت: هنا يرقد أسير عاش ينتظر الحرية عشرين عامًا».

أبو الحسن الذي قص علينا رؤياه وهو لا يعلم أنى رأيت رؤيا أني سيفرج عني بعد ثلاث سنوات، رأيت نفسي أسير ماشيًا على قدميّ في ساحات الوطن، تعزز لدي شعور بأننا سيفرج عنا بعد ثلاث سنوات،

دارت عجلات الزمن، وها أنا أمضي اثنين وعشرين عامًا في السجن ولم يتحقق شيء من هذه الرؤيا إلا أعز شيء كنت أتمناه؛ وهو العودة للسير مشيًا على قدميّ كما كنت، وها أنا أمشي بل أركض وأمارس الرياضة، كنت منغمرًا بالحديث الذي جال بخاطري فقطع عني حبل أفكاري همس أكرم في أذني دافعًا للحرج: «إذا أردت أي شيء نادني أقلْك من هذه العثرة حتى تبرأ ويزول البأس».

وها نحن نتحرق شوقًا لخبر نسمع فيه خلاصنا من السجون، ونحن الذين كنا نطرب ونألف لسماع حلم أو رؤية مبشرة بالفرج يرويها لنا أحد الأسرى.

انتقالي من سجن سوروكا إلى مسلخ سجن الرملة آنس وحدتي حيث وجدت أسرى مثلي يعانون، رفقاء الدرب والمحنة، رفقاء القيد، تعرفت على أسرى جدد قادمين للمسلخ ليتلقوا العلاج مثلي.

عقدنا عقد الصداقة وأصبحنا أصدقاء نتعرف على بعضنا البعض من خلال محادثة الأسرى ومعرفة أخبارهم شعرت بالألفة والمودة، بخلاف ما كنت في مستشفى سوروكا، كنت لا أرى سوى المحققين والمعذبين وجزارين يرتدون المعطف الأبيض. فالقلوب البيضاء لا يمكن أن تتمثّل فيمن هم جنود وضباط همّهم الأول قتل وتدمير وتعذيب الأسرى الفلسطينيين.

في آخر ساعات النهار مع بدء أول ليلة لي في مسلخ الرملة جاء السجانون كالمعتاد ليدخلوا الأسرى إلى السجن ويعدوهم ليتأكدوا من عدم هروب أحد من الأسرى، ومن ثم إغلاق الأبواب المحكمة بطريقة مؤذية للنفس والروح.

خلال هذا الواقع المرير كنا نحاول أن نسرق فرحة واحدة، أن تتقابل أصواتنا أو نسمع نشيدًا من صوت أسير مثلنا، أو حتى أن نتناقش في موضوع يثري عقولنا، نجد أمامنا سجانًا يجردنا من فرحتنا بحجة تعالي أصواتنا، هم يحاولون تجريدنا من حريتنا وحتى من الكلام بحجة الأمن والأمان، ويدخل السجان مرة أخرى ليعيد الكرة ويقوم بعدنا من جديد تخوفًا من عملية الهرب والتأكد بأنك ليس بهارب.

الحراسة على هذا القسم شديدة للغاية، حتى الإجراءات التي تقوم بها مصلحة السجون متمثلة بالاستخبارات وضباطها ضد الأسرى بشكل جنوني موجودة، كانوا يضعون الكلبشات لتقييد الأسير بسريره وجعله يعاني أكثر بحيث لا يستطيع الحركة وتشل حركة نومه أو جلوسه لتجعله يعاني ويتألم.

بقينا على هذا وكأن السجان يشعرنا بانتصاره علينا، فأغلب من كان في المسلخ مرضى بالسرطان والكلى والقلب والأمراض المزمنة والإصابات المختلفة، الكثير منهم بعمر الزهور، فالسجن والاعتقال مرارة وقهر، كنت اسميه اغتيالًا وليس اعتقالًا إنما اغتيال يسري مفعوله ببطء.

وظل الموقف المتكرر من حين لآخر إلى أن وصلت إليّ طريقة أراحتني بعض الشيء، وهي إغلاق الباب قبل مجيئهم كي يقوموا بعملية العد من خارج الباب وبهذا نتجنب إغلاقهم للباب، غير أنهم أحيانًا يقومون بفتح الباب ويعيدون إغلاقه كما يحلو لهم، ثم يضعون الأقفال الخارجية. كان يكفيهم أن يغلقوه بدون أقفال فنزلاء المسلخ خليط ممزوج من المقعدين ومرضى القلب والكلى والسرطان والأمراض المزمنة والإصابات الحرجة، التي كان سببها سنوات السجن الطويلة بظهورها.

كان كل يوم يتوافد إلينا أسرى جدد ظنًا منهم أن هذا المسلخ للعلاج، ولم يدركوا أن هذا المحتل ثعلب يرتدي ثوب الواعظ، الذي يقوم بتقديم العلاج للأسير هو نفسه من يغلق الباب بطريقة مزعجة بصوت الأقفال الصاحب وقد يعيد الكرة كما يحلو له قاصدًا إزعاجنا هو ذاته الذي يقوم بعملية التفتيش الليلية المهينة والسيئة، وكذلك هو مَن يشرف على قمع الأسرى التي تقوم بها مصلحة إدارة السجون صباحًا ومساءً.

مسلخ سجن الرملة كان المستشفى الوحيدة التي يقصدها الأسرى طلبًا للشفاء من عللهم التي أصابتهم جراء الظروف غير الصحية التي عاشوها بالسجن، وغالبًا ما يعود الأسرى إلى سجونهم بخفي حنين، يتنقلون بالبوسطة والسفر الطويل دون أي فائدة ترجى، عملية نقل الأسرى المرضى بالبوسطة عملية بحد ذاتها سيئة جدًا بل تزيد الألم والوجع، خاصة إن كان الأسير المريض مقعدًا أو حتى لو كان فاقدًا للوعي، فمقاعد البوسطة من حديد ويزداد الأمر سوءًا لو كانت درجة الحرارة عالية جدًا، ويكون الأسير في هذه الحالة مقيد اليدين والرجلين وأحيانًا مغطى بكيس على رأسه كعقاب، وهذا النقل السيء والمرهق يزيد آلام المريض وقد يسقط عن المقعد بسبب سرعة البوسطة.

أخبرني أحد النزلاء الذين تعرفت عليهم أن له أكثر من عشر سنوات يقصد مستشفى سجن الرملة لكي يجرى له عملية جراحية، ولكنهم وبعد تلك السنوات العشر العجاف أجروا له عدة فحوصات طبية طويلة، أخبروه أن العملية خطرة جدًا وقد تسبب خطرًا على حياته، تلك الحجج الفارغة كانوا يخدعون بها الأسرى، تواصلت معه بعد خروجه من السجن

بعد تسعة عشر عامًا، قائلًا بكل قلب مليء بالرحب والسعة إنه أجرى تلك العملية وتكللت بالنجاح، ومثله أيضًا الكثير من الأسرى الذين تعرضوا للإهمال الطبي، ومنهم من قضى نحبه داخل السجن.

كنا داخل السجن نتعرف على بعضنا البعض من خلال الرسائل، وكانت تستمر لأعوام كثيرة، أحدهم يحدث الآخر عني وهكذا نشأت الصداقة فيما بيننا، وأحيانًا تصل الرسائل وأحيانًا تقع بحوزة إدارة السجن وتحتفظ بها، ومن بين تلك الرسائل تعرفت على أسير في سجن الرملة، استمرت الصداقة بيننا عبر الرسائل.

بعد أربعة عشر عامًا ودعني بالدموع وبالدعاء بالفرج وفك الكربات، حيث كان يحمل القدس في قلبه وفلسطين في روحه، فهي القضية المركزية لنا.

بحديثه في رسائله وأوراقه في خطبه ودروسه؛ لطالما كان يقنعني برأيه وبالرؤية التي كان يحملها، والكلام الذي يتفوه به كانت بوصلته لا تشير إلا إلى فلسطين والقدس.

هذا الصديق هو صديق الثورة كتب لي رسالة أثّرت في نفسي وفؤادي أشد تأثير، وها أنا بعد اثنين وعشرين عامًا أكتبها كي لا تبقى سجينة هذا القلب، وكي أخلدها في صفحات تاريخي.

«يا صديقي الثائر أما بعد، عندما قتل المجاهدون الثوار الرئيس المصري محمد أنور السادات احتجاجًا على خيانته وزيارته للكيان الصهيوني وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد التي أعتبرها الطعنة الأولى لقضيتنا،

وأُعدم المنفذون جميعًا وبقي عبود الزمر على قيد الحياة حيث حكموا عليه بالسجن المؤبد فحزن حينها حزنًا شديدًا؛ لأنه لم يلحق بالباقين شهيدًا، كتب رسالة إلى الشيخ عمر عبد الرحمن _الذي يروي ما حدث_ بأنه حزين، فرد عليه الشيخ عمر بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: 111]، ثم عقب لي صديقي بالرسالة كاملة: إن الله اشترى وتمت الصفقة بين العبد وربه، ولله أن يأخذ بضاعته متى شاء أن يعجل أو يؤجل»، رسالته هدأت العاصفة التي كانت تفور كالبركان بداخلي من حين لآخر.

كانت هذه الرسالة جبر خاطر لي وتسلية وتسرية على قلبي الذي طغى عليه الحزن على فوات الشهادة. أصبح الألم وشمًا طبع على جسدي لا يفارقني، كنت أقرأ الرسائل فأتأوه وأصيح وأنا أتحدث مع الناس، يقطع حديثي صرخات تخرج من عمق القلب، تحمل حممًا نارية كأنها بركان ضاقت به الأرض، فأخرج ما به من فضاء واسع كي يتحرر من ناره، آهات ودموع خجولة تسيل من شدة الألم أخفيها حياء كي لا يراها أحد، أتضرع إلى الله بالدعاء كي يشفيني من هذا الألم الذي يحجب عني النوم، وينغص عليّ كل شيء.

كنت في نومي أصرخ وأتأوه من شدة الألم الذي كان يحاصرني، يستفيق الأسرى على صوتي، فيطلبون المساعدة من (الحوفيش) وهو السجان المسعف لكن دون استجابة، فلا حياة لمن تنادي.

ثلاثة أشهر وأكرم ينزلني من السرير ويضعني على تلك العربة (الكرسي المتحرك)، ويسير بي، إنزالي من البرش (السرير) أمر بحد

ذاتـه متعـب، بـل هـو معركـة تجلـب ذعـر الناظريـن؛ لأن أغلبهـم مـرضى لا يتحملـون أي صـوت خارجـي، تسـير بسرعـة، فأنـا لا أتحمـل الجلـوس كثيـرًا مـن ألم قدمـيّ، بـل الألم يزيـد كل ثانيـة فيوجهوننـي إلى غرفـة الغيـار لتغيـير الضمادات عـلى الجـروح وتضميدهـا بأحـد الشاشـين باللونـين الأحمـر والأزرق كـي يلفوهـا بالشـاش واللاصقـات، كنـت أشـعر بالرغبـة بالتقيـؤ مـن عـدم نظافـة غرفـة الغيـار، كنـت أخشـى عـلى نفسـي أن يتلـف الجـرح بسـبب انعـدام النظافـة وعـدم التعقيـم والافتقـار لـلأدوات الصحيـة.

مـرت الأيـام وكأننـي غريـب يعـود إلى الوطـن، بجانـب السريـر الـذي كنـت أنـام عليـه علقـت عـلى حافتيـه علبـة أحضروهـا إليّ لصعوبـة ذهـابي لـدورة الميـاه، واسـتمر هـذا الوضـع لشـهور طويلـة، ورأيـت بعينـيّ كـم كان طريـق ذات الشـوكة صعبًـا، لم يكـن السـجن هينًـا، لكننـي كنـت أتدثـر بالدعـاء: ألا بذكـر الله تطمئـن القلـوب. مـن كانـت منيتـه في أرض فليس يمـوت في أرض سـواها، رغـم مـرارة الـدرب وصعوبته ووحشـته إلا أن فلسـطين كانـت بقلبي، ومـا أجمـل أن تعيـش ثائـرًا لا يهـاب المـوت ويتمنـى الشـهادة.

أثنـاء زيـارتي لغرفـة الغيـار كنـت حـذرًا جـدًا مـن أن أسـتخدم الأدوات أو أن أجلـس عـلى سريـر دون تعقيمـه، كـما كنـت أتـلافى إطالـة الوقـت في هـذا المـكان، وفـور انتهائـي مـن التغيـير عـلى الجـروح كنـت عـلى الفـور أسرع بالعـودة إلى سريـري، فهـذا عـذاب فـوق عـذاب.

مـرت الأيـام ببطـء وبشـكل ثقيـل، كان اليـوم كالشـهر والشـهر كالسـنة والسـنة كالدهـر كامـلًا.

6

في السنوات الأولى من اعتقالي اشتقت للعائلة والأحباب والأخوة، ولأختي الصغيرة المدللة العزيزة على قلبي، لأمي وأبي، وكنت أردد السؤال دائمًا كيف أحوالهم؟ أهم بخير؟؛ ليطمئن قلبي، يا الله كم كان حبي وشوقي لهم يقتلني، فالشوق أصبح مُحرقًا، وخشيت الموت من حر شوقي، فلولا الدعاء وركن الله ورحمته لقتلني شوقي.

أتدثر بالدعاء وطلب الطمأنينة من الله فخفف عني عذاب الشوق والحنين وقذف في قلبي الطمأنينة والرضا وغدوت صابرًا راضيًا بقضاء الله وقدره.

جالت بخاطري حيلة وهي إرسال رسائل لعائلتي عن طريق الأسرى (الجنائيين) الذين كانوا يمكثون في القسم المجاور لنا، بالفعل استطعت أن أوصل أخباري لعائلتي.

لم يقتصر الأمر على ذلك فقط، بل كنت أكتب رسائل للأسرى الغزيين في سجن نفحة، عندما كانوا يأتون للعلاج يخبئونها حتى لا يستطيع السجان رؤيتها، ثم يوصلونها لعائلتي عن طريق ما.

من خلال تلك الرسائل عرفت أن إخوتي الصغار كبروا، منهم من استكمل مسيرة دراسته وأنهى مرحلته الإعدادية والتحق بالثانوية والآخر التحق بالمرحلة الجامعية، فالحياة مستمرة، هكذا نحن الفلسطينيون رغم القهر والألم رغم الليل ما زلنا نضيء النجوم لينبعث منه نهار.

رسالتي حولت الحزن لفرح، كنجوم بغسق الدجى لتملأ سماء البيت فرحًا وسرورًا، بابتسامة رسمت على مبسم أمي. يحيط الجميع بأبي على شكل دائرة وهو يقرأ رسالتي لمعرفة ما بداخلها.

أبلغتني إدارة السجن بأن لدي محكمة عسكرية ويجب أن أتجهز لها خلال خمس دقائق، وهي المحكمة العسكرية في معبر بيت حانون (إيرز)، هيأت نفسي توضأت وصليت لله _عز وجل_ قبل خروجي للمحكمة، وقادني بالكرسي أحد السجانين إلى أن أوصلني إلى خارج باب السجن، وكانت هناك سيارة من نوع خاص لنقل الأسرى، نوافذها سوداء طويلة نوعًا ما، كانت في انتظاري، وخرج منها شرطي تابع لمصلحة إدارة السجون، وتسلم هو قيادة الكرسي المتحرك المدولب ووضعني بعنف في السيارة.

سارت السيارة كالطيف بسرعة الرياح وهي تقترب من مكان لا أعرفه، وعُصبت عيناي حتى لا أرى شيئًا، ووضعوني على الكرسي المتحرك المدولب وساروا بي وأنا مكبل اليدين، وكانوا يدخلونني في دهليز وهو عبارة عن ممر ضيق، ثم دهليز آخر وأنا أذكر ربي وأسبحه ألا يتخلى عني فهو مستجيب للداعي إذا دعاه.

وكنت في كل دهليز أدخل إليه وأنا أسمع صوت ضحكاتهم واستهتارهم واستهزائهم وكنت أسمع حديثهم بالعربية المكسرة وهم يستهزئون؛ لأني كنت أشبه الشيخ أحمد ياسين، مرتديًا وشاحًا أبيض ومقعدًا على كرسي متحرك مدولب.

كان الجندي الذي يقودني بالكرسي المتحرك يصدم الكرسي بالحائط مرة وبالأرض مرة أخرى وهو يعلم أنني أعاني من الآلام الشديدة، وظل يضحك بشكل هستيري، كأنه يشاهد فيلمًا كوميديًا، كان فعله متعمدًا قاصدًا ليجعلني أتأوه.

تولى هذه المهمة البشعة سجان ذو طول مرتفع وعينين كبيرتين مخيفتين كان يلقب بأبي يوسف، وكان سفاحًا ساديًا يشبع غريزته السادية برؤية الدم وهو ينزف من قدمي بعد تعذيبي، وبحرماني من دورة المياه وإظهار الشماتة والتشفي، واستغلال كل فرصة للنيل مني حيث كان يسلط انفعاله على قدمي بسوطه.

أطل عليَّ من أعلى درجات سلم الدرج شخص غليظ الهيئة فظ اللسان، طلب مني أن أصعد السلم وهو متيقن بأنني لا أستطيع الصعود،

وبعد أن دار حديث طويل بيننا، أرسل لي شرطيين لكي يحملاني ويصعدا بي إلى أعلى الدرج وهما يرتديان معطفًا أبيض، وسأل أسئلة استبيان عن الحالة الصحية كي يدخلوني إلى الزنزانة بكل فظاظة:

عندك خساسية؟

- لا

تشرب خشيش؟

- لا

تشرب دخان؟

- لا

ذهلت من سؤاله، أعاد السؤال مرة أخرى أجبته بأنني لا أشرب الحشيش، ولا أدخن.

لم يسألني شيئًا عن جروحي، ولم يكلف نفسه بالنظر إليها، فقط سألني سؤالًا سخيفًا وكأنه لا يبالي ولا يرى حالتي الصحية، فقلت في نفسي ستبدأ الحلقة الثالثة من مسلسل التحقيق.

بعد هذا الاستبيان الصحي قاموا بتعصيب عيني مرة أخرى، وأنزلوني من أعلى سلم الدرج إلى آخر درجة مربوطًا بالكرسي ربطًا محكمًا، فالحارس يصدمني وكأني كرة أمامه. خلال الدهليز بدأت أسمع صوت المفاتيح والأقفال من أصوات مزعجة، قذفني من الكرسي وطرحني أرضًا بزنزانة صغيرة جدًا تنبعث منها الكآبة من كل زاوية فرفعت العصبة عن عيني فوجدتها زنزانة صغيرة ضيقة جدًا وبشعة.

تأملت الزنزانة مرة تلو أخرى البالغة طولًا وعرضًا مترين وجدرانها خشنة تمامًا، لم أستطع إسناد ظهري عليها ولا حتى الاتكاء عليها قليلًا، ولا يوجد بها شبابيك ولا منفذ للحياة، إبريق ماء خالٍ من قطرات الماء، فيما كان يشع منها ضوء أصفر خافت، يوجد فقط مرحاض أرضي لا يستطيع المصاب استخدامه، تركوا لي زجاجة كالتي كانت معلقة بجوار سريري، وأنا جالس على الزاوية الأخرى كانت قطعة حديد طولها وعرضها خمسون سم مثبته، قيل إنها مكيف، لكن لا توحي بأنها مكيف، بل أداة للتعذيب يتحكم بها المحقق على الزاوية الأخرى، من خلال خفض درجة الحرارة، لا يستطيع السجين تحملها كأنه فصل الشتاء، فالشتاء فصلٌ جائر، يُعميك عن كلّ شيء، فيضربك بسوطين سوط البرد القارس، وسوط الحنين والذكريات خفف الله عنا عذاب الشوق والحنين وقذف في قلبي الطمأنينة والرضا حتى غدوت صابرًا راضيًا بقضاء الله وقدره.

عدت أنظر لتلك الزنزانة التي تحتوي على فرشة متهالكة مأكولة الأطراف، هشة، ليس لها لون، لو رأيتها لقلت إن الفئران أكلتها كلها ولم يتبق لك إلا جزء صغير للغاية، وبجوارها بطانيتان لونهما رمادي باهت، كنت إذ احتجت إحداهما لتغطية قدمي ووضعتها على عيني من ذلك الضوء الأصفر الخافت الذي يملأ المكان أشمئز من رائحتها الكريهة، على حافة الجدران يوجد صنبور ماء يخرج منه الماء حين الضغط عليه، وهناك أعقاب سجائر كثيرة عند تسريب الماء وكأنه يسقط من مدخنة مليئة بالسجائر.

أطلقت عليها اسم المغارة، خشيت أن أبقى بها للأبد وأنا بين تلك الجدران الضيقة المليئة بالخربشات التي لم أفهم منها ولا أفهمها لمن

هم سبقوني بالمكوث فيها، وحيد أتسلى بقراءة الخربشات وكنت أسمع صوت الأسرى وهم ذاهبون للتحقيق أو خارجون منه، كنت أسمع صوت السلاسل والقيود وتمنيت لو أن أحدهم يخبرني بالساعة لأعرف بها الليل من النهار ولأعرف أوقات الصلاة، كنت عاجزًا عن تمييز الأيام التي تمضي ومع ذلك استطعت أن أقدر أوقات الصلاة تقديرًا، اجتهدت كنت أصلي الفجر وقت العصر، والعشاء في وقت الفجر وهو اجتهاد مني، وعندما يخرجونني إلى غرفة التحقيق بعد أن أختلس نظرة من نافذة غرفة التحقيق لأرى نور النهار؛ حينها أقدر الوقت خلاله، وأحيانًا أسأل المحقق عن الوقت تدريجيًا للصلاة فيخبرني بأنه لا يعلم. هل هو صادق أم كاذب؟!، فهو كاذب بالفعل سياسة التعذيب لها أشكال متنوعة ومنها عدم معرفتنا للوقت، وذلك أيضًا بقصد التعذيب، ومسح الزمن من عقولنا، فأنا منذ أيام محروم من الشمس في هذه الزنزانة فشعرت أن النهار لم يأتِ وأن الشمس لم تشرق بعد.

يوم السبت فقط كنت أميزه عن غيره دون باقي الأيام؛ لأنهم لا يستدعوننا إلى التحقيق، لم أكن أعرف شيئًا عن الزمن إلا خلسة وفي نادر الأحيان، وعندما أعرفه أشعر بأنني حققت انتصارًا على السجان، ولكن مع مرور الوقت الذي مكثته في الزنزانة كنت أشعر طيلة الوقت بأهمية وجود المصحف، وأن الزنازين ضيقة ومرعبة، وموحشة وكانت تراودني أفكار سلبية للغاية من قلق وتوتر وتفكير وانتظار.

هذا المكان المظلم رغم الضوء الأصفر الخافت المؤذي للعين الناظرة إليه؛ لا منفس فيه إلا من تحت باب الزنزانة عندما تُفتح ليطل منها

الحارس ليعطيني الطعام، أو ربما ليستدعيني لمقابلة الضابط لبدء مسلسل تحقيق جديد، أو ليكسر غفوتي القليلة التي تكون مجرد دقائق لاستمرار التحقيق والاعتراف والمساومة.

أو بين تهديد المحقق وشتائمه، وأذرعٍ هابطة على جسدي بحقد ليس له مبرر؛ لأنني أتقمص صفة العنيد الذي لا يعرف شيئًا ولا علاقة له بأحداث يعلم الجميع أنه ارتكبها بمحض إرادته.

7

يفتح باب الزنزانة ليلقي لي السجان رغيف الخبز في كيس بلاستيكي ويغلق الباب بسرعة، أزحف من مكاني زحفًا حتى أصل إلى الكيس فأخرج الخبز منه، وأستخدم الكيس لعصب جروحي كي يقف نزيف الدم الذي يتدفق منها، وأمنع تلوث الوبر والشعر والأوساخ التي تنجم عن البطانية العفنة والفرشة القذرة بسبب الإهمال الطبي المتعمد من السجانين الصهاينة.

كنت يوميًا أنتظر السجان ليلقي لي الكيس الذي يحتوي رغيف الخبز، وأصنع منه ضمادات للجروح، هذا الاجتهاد كان يشعرني بالراحة

والانتصار على مرارة السجن، كنت أنتظر يوميًا رغيف الخبز، ليس رغبة في الرغيف، إنما للحصول على الكيس الجديد لأضمد به جروحي، بعدما منعوا جروحي من التضميد فترة التحقيق العسكري.

غريزة البقاء كانت تمسك بي من راقة ثوبي وتدفع بي رغم أنفي كي أشرب، أما الكوب الذي يحوي هذا الذي يسمى شايًا فكان كوبًا بلاستيكيًا به ورقات وندوب وكدمات تخبر عن عمر هذا الكوب، لون الكوب تغير عن لونه الطبيعي، فأمسى يميل إلى السواد والصفار، بدا وكأنه هو الآخر طالته حالة الإهمال وقلة التنظيف والتطهير والتعقيم، كان يواسيني حاله بحالي مع الإهمال الذي تعرضت له وأنا جريح، تذكرت طرقات أمي لباب غرفتي وهي حاملة كوبًا من الشاي بالنعناع الأخضر الذي زرعته في أروقة البيت وسقته ماءً بيديها، لتقول لي: أفق حان موعد ذهابك لجامعتك! لو يعرف السجان أن نعناع الوطن مرّ بذاكرتي وحنت إليه نفسي، لقمعها واعتقلها هي الأخرى.

أما البيضة التي كانوا يأتونني بها فقشرها مهشم، بدا لي وكأنها تعرضت للتعذيب أو أنهم دحرجوها على الدرج كما كانوا يفعلون بي وأنا جريح، عند تقشيرها كنت أرى أجزاء منها غطاها السواد، توحي بأن أمرًا جللًا أصابها.

عند تقسيمها أشعر بقساوة البياض والصفار، فأكتفي بالحد الأدنى من الخبز ورشفات من الشاي، وفي آخر النهار غالبًا يأتونني بصحن دائري صغير به الحميم وهي قطع الحمص، الصحن تعرض هو الآخر لنفس ما

تعرض له كأس الشاي. ألوان عديدة صبغت أجزاء منه، النظر إليه يفقد الشهية عن الأكل.

الصحن يحتوي في باطنه «حميمًا»، والحميم بالعبرية هو حبة حمص، سلقت بطريقة وكأنه تم تجهيزه لسد شهية الأكل، طفا قشره عليه وذابت حبات الحمص في مائه الذي يشبه صدأ الحديد، من يرَ هذا المنظر لا يأكل ولن يبقى له شهية للأكل.

تساءلت في نفسي: كيف لي أن أحافظ على صحتي وآكل كي أعجل من شفاء جروحي أمام هذا النمط الغذائي المتردي؟ كان يجول في ذهني يبحث عن إجابة، مع مرور الأيام والتي أثبتت لي أن النمط الغذائي في الزنازين لن يتغير؛ بحثت عن الجانب الأصلح مما يسمى بيضة مع لقيمات من الخبز واستقويت بها، وفي آخر النهار أبحث عن حبات الحمص التي لم يصلها الحرق ونسيها الطباخ كي أخفف على نفسي في هذه الحياة المعتمة آملًا أن يأتي بعد هذه العتمة فجر يضيء هذه العتمة، وبدأت آكل الحد الأدنى مما استصلحته من طعام الزنازين.

وفي أحد الأيام هددني أحد المحققين أن قدميّ سوف تضعفان في هذه الظروف ويتوجب عليَّ الاعتراف، وكيف لعزيمتي أن تلين، رغم قسوة السجن والتعذيب، فبشر الصابرين.

دخلت معركة الأمعاء الخاوية، وهي خوض الإضراب عن الطعام، وفي الحقيقة الطعام الذي كان يقدم في الزنزانة ليس بطعام، حتى الشاي الذي كنت أحب أن أشربه ليس بشاي.

والطعام الذي كانوا يأتون به كنت أعيده إليهم آخر النهار كما هو، وكنت وما زلت متحديًا الجوع والإهمال الطبي.

وفي إحدى المرات وأنا أعاني الجوع والألم إذ بباب الزنزانة يفتح، أخذوني وساروا بي بعد أن عصبوا عيني دون أن أعرف إلى أين أنا ذاهب، أدخلوني في غرفة صغيرة فيها رجل يرتدي معطفًا أبيض، وظننت أنه طبيب من ذلك المعطف. كان ينظر لي ويضحك وفي عينيه الشماتة، وأخذ يشير بيده على شكل مسدس نحوي بحدة، وبدأ بالسؤال هل الرصاصات أصابتك فعلًا؟، هنا أخذ يضغط بقوة على الجرح وأنا أتألم وجعًا دون إصدار صوت مني يجعله ينتصر عليَّ، يظن أنه أخافني فلا يعلم أن الروح لا يأخذها إلا الله وحده لا شريك له.

تقدم نحوي بخطوات ثقيلة متكاسلة، ووضع قليلًا من دواء الجروح بقوة قاصًدا إيذائي حيث استقرت الرصاصات في جسمي، وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي غيروا فيها على جروحي وبعد فترة طويلة من التحقيق.

أعادوني إلى الزنزانة، وفي طريقي إليها كانوا يدحرجونني مثل كرة السلة وهم يضحكون بأصواتهم العالية، وألم البلاتين يزعجني ويؤلمني خاصة الذي يتوسط قدمي مع أي اهتزاز على العظم المهشم، وما زلت مضربًا عن الطعام، ولم يكن معي أحد في هذه المعركة، كنت متوكلًا على الله، وطوال فترة الإضراب بقيت حبيسًا في المكان متماسكًا ولم يؤثر على نفسي شيء مع قلة الناصر والنصير.

بينما كنت مستلقيًا في الزنزانة على ذلك الفراش المتهالك _الذي تفوح منه رائحة الأرجل_ أشكو همي وحزني إلى الله سمعت صوت المفاتيح، ظننت أنها كالعادة جولة من جولات التحقيق، لكن كان يقف أمامي رجل يرتدي نظارة على عينيه يمسك بيده اليمنى حقيبة، تقدم نحوي برفقة السجان، عرفت أنه طبيب العظام الذي خضت إضرابًا لكي يعرضوني عليه ليصلح قدمي، أخبرني بأن أبقى على الحركة الدائمة لأسفل القدم حتى تلين ويسهل إصلاحها، وأرشدني إلى التمرين رغم الوجع إلا أنني نفذت توصياته وداومت على التمرين، وكان لذلك دور إيجابي في تماثلي للشفاء، وإن كان بدرجةٍ قليلة.

شعرت بنشوة الانتصار عندما حققت هدفي من الإضراب عن الطعام، ولكن المعارك والأهداف في السجن لا تنتهي، ولقد صنعت خدعة في الزنزانة التي تبث الرعب والخوف، فجعلت أفكر في حيلة تمر عليهم لكي يأتي أحد ويؤنس وحدتي بتلك المغارة؛ ما جعلهم يأتون بأسير آخر في الزنزانة.

طلبت من الأسير الذي جاء ليمكث معي أن يطلب من السجان كرسيًا متحركًا فأنا لا أستطيع استخدام المرحاض دون كرسي متحرك، دورة المياه كانت ترهقني، وتنال مني كما ينال التعب، هكذا كانت حياتنا مع الاحتلال داخل الزنزانة. لو طلبت قطرة ماء يجعلونك تعاني أولًا لكي تحصل عليها. تعرفت على الأسير الذي جاء إلى زنزانتي وكيف اعتقل وتعرفت على عائلته وتأكدت أنه ليس بأسير بل أحد الجنود الصهاينة، انتحل اسم عائلة شهيد من مدينة رفح، وادعى أنه خاله وأخذ يثرثر، وجعلته يتكلم فقط وأنا مستمع.

هـذا الأبلـه أخطـأ بكلمـة وأنـا مـن غـزة، أعـرف غـزة وأهـل غـزة ولهجـات الغزيـين، وعرفـت أن وراء هـذا الرجـل خبيئـة، لم تكـن كلمتـه التـي أخطـأ فيهـا في قامـوس الغزيـين، كان الأبلـه ومـن وراءه يعتقـدون أن لي اتصـالًا مـع ذلـك القيـادي، فلجـأوا إلى هـذه الطريقـة لحـل قصـة العلاقـة بينـي وبينـه.

هـذا النزيـل كان طيلـة الوقـت يخطـئ في الحديـث بكلـمات عبريـة، والـكلام واللهجـة مختلفـة، يريـد أن يعـرف كل شيء عنـي وعـن أهـل غـزة خاصـة أهـالي الأسرى، كان يتكلـم العربيـة، ومـما أثـار دهشـتي أن السـجان كان يلقـي الطعـام لي ويسـلمه إليـه تسـليمًا، وهـو يقـول لـه (أوخـل) بالعبريـة أي (أكل).

جـاء وقـت تسـليم البيـض والخبـز وأنـا أرقـد مـكاني لا أسـتطيع الحركة، بينـما هـو يقـشر البيـض منتحـلًا شـخصية المبـادر الكريم الشـهم حسـن الجـوار، كان ذلـك شـعورًا جميـلًا، ولكنـه يحمـل في طياتـه أوسـاخًا، وكأنه لا يعرف شـيئًا اسـمه غسـل اليديـن، لم أر أقـذر منـه، لقـد كانـت كتلـة مـن الأوسـاخ عـلى يديه، فأنـا مـن البدايـة لم أسـترح لـه، وكنـت قلقًـا منـه ومـن لهجتـه وشـكله وقذارتـه، هـو فقـط يثرثـر وأنـا التزمـت الصمـت، وسـألني: لماذا أبكـي؟، فقلـت في نفسي لماذا لا أجيبـه!، فقلـت لـه اشـتقت لعائلتـي، ومـا كنـت أعـرف بمشـاعر الحنـان والشـوق، تدفقـت مـن عينـي وكان السـجن فاتـورة الحرمـان مـن رؤيـة عائلتـي لأكثـر مـن أربـع سـنوات، ذلـك عقـاب لي أنـا وبعـض الأسرى المخالفـين أمنيًـا حسـب روايـة الاحتـلال ومـا تدعـي إدارة السـجن النزيـل. كان ذا شـعر غزيـر وأظافـر طويلـة جـدًا كأنهـا حوافـر تحمـل تحتهـا أوسـاخًا أراهـا بالعـين المجـردة، بينـه وبـين الله قطيعـة تامـة، لا يعـرف شـيئًا اسـمه نظافـة، مـا كنـت أرى منـه إلا

ما أراه مدعاة للتقيؤ، لم أر أكثر ولا أقذر منه، كتلة من الأوساخ جعلته لا ينفك عن الحكّ والهرش في فروة رأسه وفي أنحاء جسده، أصابني شعور أني لا آمن بوائقه. في البداية كنت أتكئ على نفسي، قلت في نفسي قذارته على نفسه، لكن الأمر تعدى ذلك ووصل إلى اللقمة التي أقتاتها، وكان يصرّ على تقشير البيضة ويضعها في يدي، كيف لي أن آخذ طعامًا بعد الذي رأيته منه من قذارة ووساخة؟!

تجرأت أن آكل من يده، نسيت الجوع وأحيانًا قد تصل يدي إلى شيء من الطعام قبل أن تصله يده، فأكتفي به وأحمد الله وأسأله أن يجعل لي فرجًا ومخرجًا، كنت كالذي استجار من الرمضاء بالنار، أبقيت على حسن الخلق معه رغم ما رأيت منه، فأنا بحاجة إليه لمساعدتي للوصول إلى دورة المياه، وبعدما أخذوني إلى التحقيق ونفس السيناريو المتكرر وهم يحاولون إيقاعي متعمدين دخلت الزنزانة فلم أجد النزيل الخائن بالزنزانة، افتقدته؛ لأنه كان يثرثر وكان يسيّر لي الوقت.

بعد أيام أدخلوا نزيلًا آخر بعمر الخمسين عرفت الوقت منه، وأخبرني أنه سيساعدني إن كنت أنوي أن أرسل شيئًا لعائلتي، وقال لي أيضًا إنه على جهوزية تامة لمساعدتي، شككت في الأمر وكيف لرجل مثله أسير أن يقول هذا الكلام بكل ثقة.

فضحكت في نفسي وقلت هؤلاء العصافير يستخدمونهم للإيقاع بنا وأخذ المعلومات، وهذا النزيل كان ينام على ظهره وعيونه مفتوحة تجاهي.

وفي أحد الأيام دخل لزنزانتي ضابط طويل القامة أصلع الرأس، ذو عينين بنيتين وأخبرني بأنني ذاهب إلى إخواني، وهو يقصد إخواني الأسرى إخوة القيد.

ظننت أني ذاهب للتحقيق مرة أخرى، وقلت إنها خدعة منهم.

نقلت إلى قسم آخر من زنازين التحقيق، كان عبارة عن ساحة مكتظة، تعرفت عليهم جميعًا، ومن ضمنهم تعرفت على صديقي النابلسي وأخذتنا أواصر الصداقة. النابلسي أسير فلسطيني في السجون الصهيونية كان يعمل بشركة أدوية صحية، رجل عقله أكبر من عمره، شعره غزير يكسو الثلج الأبيض رأسه، همس بأذني قائلًا: نحن بزنزانة مليئة بالعصافير، كان أول الذين قدموا لي التحية والترحيب فهو كان رجلًا لطيفًا متعاطفًا مع حالتي، وطلب أن يتولى رعاية قدمي، وكانت حينئذٍ إذا احتك بها شيء تشعرني بصعقة كهربائية تنفض جسدي وتثير براكين الألم ويتصبب العرق من جسدي، لكني رغم هذا كله بحاجة لمن يعتني بها، فقد كستها الفطريات وأصبح الجلد مقشرًا ويحتاج إلى من يزيله، يحتاج إلى من يطهر ويعقم ويداوي.

نظرًا لضرورة العلاج تحملت الألم وأصبح هذا الرجل صديقي يغسل لي الجروح، ويزيل الجلد المقشر، ويداوي الفطريات ويداوي الجروح ويغطيها بالشاش والضمادات واللصقات، لم يألُ جهدًا في المداومة على تقبيلي والاعتناء بقدميّ خاصة بعد أن رأى ما حل بهما في الزنزانة جراء الإهمال والظروف الصعبة. بدأت قدميّ تعود إلى لونها الطبيعي وتتماثل

للشفاء من الفطريات على يد صديقي الوفي.

كان صديقي النابلسي يدفعني ويوقف الكرسي بالشمس كنوع من العلاج، فأخذ وضعي الصحي يتحسن مع المعالجة والتهوية والتعرض للشمس والتغذية.

ستون دقيقة مكثتها تحت أشعة الشمس كانت كافية لأعانقها، كنت أحاول إقناع الشمس أن تأتي معي لتلك الزنزانة، كانت ضيفة تزورني يوميًا بدون استئذان تمنيت لو بإمكاني أن أخبئها عن نظر السجان الواقف الذي يعد الدقائق لكي يدخلنا للغرفة، وتساعدني على العلاج الطبيعي قبل أن أعود لتلك الزنزانة المتكدسة بالزحمة التي كنت أسميها أوقاتًا بالوكر نظرًا لعدم وجود تهوية بها ولا تعرف جدرانها الشمس.

8

وفي يوم جمعة وبعد أن أنهى أبو عصام كبير الأفاعي خطبة الجمعة وفرغ من الصلاة؛ انتفض صديقي النابلسي واقفًا مكان الخطيب؛ وقال: «أنا لا أريد الصلاة معكم بعد الآن لأنكم عصافير» يعني جواسيس.

موقف متهور وغير محسوب دفع ثمنه أيامًا وليالي طويلة على يد العصافير، قال هذه الكلمات وعاد إلى مكانه لصلاة السنة لم ينطق أحد شيئًا؛ كأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، بعد انتهاء وقت الفورة أي الفترة التي يسمحون لنا فيها بالخروج إلى الساحة وبعد عودتنا إلى الغرف وإغلاقها من قبل السجان؛ اجتمع العصافير عليه فأوجعوه ضربًا وأنزلوه

زاوية وبدأوا يحققون معه بتهمة العمالة مع المحتل كي ينزعوا عنه وطنيته بالاعتراف، وكي يشوهوه في نظر بقية الأسرى المغرر بهم والذين لا يعلمون أنهم من العصافير، كانت تلك الأفاعي الباسمة تبخ سمومها.

منع صديقي من الاختلاط بباقي الأسرى كعقاب نفسي وأصبح يشار إليه كعميل، وهذا الأسلوب الرخيص دفع ثمنه أسرى كثيرون أعوامًا من أعمارهم بين جدران السجون.

تطلب وضعي الصحي الذهاب إلى المستشفى بسبب التدهور وأوهموني أنهم خلال ساعات قليلة سيأتون ليأخذوني للمستشفى، جاءوا وعصبوا عيني وأعادوني، ولسوء الحظ لم أعطَ فرصة لاختراق الجدار البشري الذي فرضه العصافير على صديقي النابلسي، وظللت أفكر به حبًا وشوقًا لمعرفة أخباره حتى اهتديت إلى من يدلني إليه بعد فراق دام لأكثر من عام، وتعرفت على الأسرى وسألتهم عن أخباره بعدما ذاق طعم الحرية وشم عبير الوطن، وطلبت رقم هاتفه فالهواتف المهربة لولاها لنسينا صوت أحبابنا خاصة نحن الممنوعين من زيارة ذوينا وأحبابنا.

صديقي النابلسي، أجل عرفت صوته، وكأنه يتوق لسماع صوتي ومعرفة أخباري، وعلمت منه أنه سجن وتنفس عبير الحرية.

عدت إلى الزنزانة بعد التحقيق القاسي مثل كل مرة، لكن هذه المرة وجدت ثلاثة أسرى لم أعرف أحدًا منهم إلا الكرسي المتحرك الملازم لي لم يفارقني إلا وقت النوم، تعرفنا على بعضنا البعض، أولهم من الأردن، وثانيهم من رام الله، وثالثهم من الخليل، ورابعهم أنا من غزة، وخامسهم الكرسي المتحرك، كلنا بأرض الرباط فلسطين تجمعنا جميعًا.

أصبحنا أصدقاء وكنا نتيمم للصلاة، وبعد التحقيق انتقل كل منا إلى سجنه إلا النزيل الأردني بقي في الزنزانة، وأنا نقلت مرة أخرى إلى مسلخ سجن الرملة.

في سجن الرملة كان الروتين اليومي المعتاد هو توزيع الدواء ثم وجبة الفطور التي تأتي قبيل الظهر، التي تحتوي على بيضة لكل أسير بجوارها شيء من مشتقات الألبان، ثم تأتي صلاة الظهر وأصليها كغيرها على سريري بعد أن أتوضأ حتى غروب الشمس ودخول وقت صلاة العشاء، وبعدها تقوم إدارة السجن بعدنا خوفًا من هروب أحدنا.

ثم تأتي صلاة العصر والمغرب والعشاء بعد الفورة، ثم ندخل ويغلقون الأبواب ويعدوننا كل مساء.

كان كل ما تمنيته في ذلك الوقت هو السير على قدميّ، وفي كل يوم لا يسمح لأحدنا إلا الشكوى فقط، وإن كانت للإدارة أو البوسطة الذين ينقلون الأسرى في عربات البوسطة، وكانت المشاعر السلبية تسود الأسرى مع اختلاف الأمور التنظيمية والفصائلية.

تحدثت مع الإخوة المسؤولين عن العمل التنظيمي لكي ينضم إلينا زميلي الأردني، وأخبرتهم أنهم وضعوه في العزل الانفرادي، وطلبت منهم أن يفعلوا ما بوسعهم لإخراجه من الزنازين وإعاقة إرساله إلى العزل الانفرادي.

كنت متابعًا لأخباره، فعلمت أنه حكم عشر سنوات مكثها في العزل الانفرادي؛ بحجة تدربه على معدات خطيرة دون أن تصل أفكاره

للأسرى، وبعد عدة سنوات وهو في زنزانة البوسطة التي تقل الأسرى بين السجون؛ نادى على الأسرى بالكرسي الأمامي للبوسطة والذي يفصل بينه وبينهم حديد وحرّاس، لكن التواصل معهم يكون عن طريق فتحات صغيرة صممت فقط لعبور الهواء، وكانوا ينادون على بعضهم بأصوات عالية كي يتغلبوا على صوت البوسطة وضجيجها.

سمعت صوت صديقي الأردني وهو بالبوسطة، يسأل عني وأرسل لي السلام، وبعد هذا الانقطاع الطويل الذي امتد لسنوات في سجون الاحتلال؛ رأيته على شاشة التلفاز بعد أن أمضى سنواته العشر بالسجن وأنا سجين الزنزانة.

قمت بالدوران في المستشفى كالروتين السابق، في الصباح تقشير الجلد المتيبس وتطهير الجروح، ومن ثم الذهاب إلى غرفة الغيار معتليًا صهوة الكرسي المتحرك، ثم أعود إلى السرير مسرعًا كي أريح جسدي بالاستلقاء وأرفع قدميّ على مسند أو مسندين كي أخفف قليلًا من الألم.

المستشفى تختلف عن الزنازين بتوفير أدوات الغيار على الجروح من دواء وشاش وبلاستر وصابون للتطهير ووجود حمام للاستحمام، أما في الزنازين فليس ثمة دشات، والذهاب إلى الدشات مرهون بمزاج السجان، على صعيدي الشخصي لم يسمح لي بالذهاب للدوشات إلا مرة واحدة طوال فترة التحقيق.

في مستشفى سجن الرملة كنت ألتقي بأسرى أعرفهم، بينما في الزنازين لم أكن أعرف أحدًا ممن رأت عيني؛ الأمر الذي يثير التوجس والوحدة في النفس.

الزنازين لا تشبه شيئًا سوى جهنم، بينها أمور مشتركة، في مستشفى سجن الرملة كانت الأيام تشبه بعضها بعضًا، تبدأ في الصباح برجال من إدارة السجن للقيام بعد الصباح بعدهم. ثم الدش الاضطراري الذي لا يمكن أن أتخلى عنه أو أغير وقته؛ لأنه سيتبعه الذهاب إلى الغيار على الجروح، أنظف وأطهر وأغسل الجروح بالماء والصابون وأزيل الدم المتيبس على الجلد، وفي غرفة الغيار يضع صديق لي الدواء الأحمر على الجروح فيختلط لونه بلون الدم، ثم يضع الشاش والضمادات واللاصق.

عندما يفرغ صديقي من تطهير جروحي أكون قد استنفدت قواي، فما عاد لي طاقة للبقاء جالسًا على الكرسي، أسرع بالذهاب إلى السرير كي ألقي بجسدي المتعب عليه جراء هذه الجروح وما أحاط بها من بلاتين، ألم لا يتركني للنوم ولا يدعني على مائدة طعام، ولا جالسًا مع الرفقة في حديثي مع الأسرى، ثم يأتي في سلم الروتين اليومي في مسلخ الرملة توزيع الدواء على المرضى، كل منا يستلم دواءه وهو ما حدده له طبيب السجن.

بعد العد يكون الأسرى المرضى والمصابون في مسلخ الرملة قد أضناهم التعب، فنال منهم الألم والأوجاع، فيلتجئون إلى الله ويحتمون بأدوية مسكنة ويفرون إلى النوم، بعد ذلك نتعرف على الأسرى القادمين من السجون إلى مستشفى سجن الرملة بغرض العلاج، وغالبيتهم يعودون بخفي حنين لم يحصلوا على علاجهم، وبعضهم يكثر عليه أن يبقى سجينًا في السجن، يتحمل عناء البوسطة راجيًا أن يجد حلًا لبعض العلل التي أصابته وعبثًا يحاول، ثم بعد ذلك يسمح بالخروج إلى الفورة ساعة، يخرج

فيهـا الأسرى الأصحـاء في المستشـفى للمـشي، أمـا المـرضى منهـم فيبقـون حبيسي أسرّتهـم ومـا أصعـب هـذا الشـعور.

ثـم يـأتي الليـل المبـدوء مـن صـلاة العشـاء بعـد الفـورة ومـا إلى ذلـك، ثـم يـأتي إغـلاق الأبـواب ويعـاودون عدّنـا كل مسـاء، كل يـوم عـلى هـذا الشـكل.

بعـد ثلاثـة أشـهر مـن وجـودي في مسـلخ سـجن الرملـة أصابنـي الملـل مـن الجلـوس والاسـترخاء عـلى السريـر، الاسـتلقاء الـذي كـسّر عظامـي وخـدر جلـدي، دفعنـي هـذا الأمـر أن أنـزل مـن عـلى السريـر مسـتندًا عـلى يـدي بصعوبـة بالغـة، وألقـي بنفـسي عـلى الكـرسي المدولـب، وأحـرك بيـدي عجلاتـه وأطـوف غـرف المستشـفى التـي كانـت سـت غـرف قاصـدًا أن أتحـرر قليـلًا مـن حالـة الملـل ومـن آلام السريـر. خـلال مكوثـي في سـجن الرملـة جـاء إلينـا شـاب أبكـم لا يتكلـم بتهمـة باطلـة قيـل إنـه أجـرى اتصـالًا مـع القيـادة العسـكرية في سـوريا، بعـد عـدة أشـهر أطلقـوا سراحـه بعـد أن عرضـوه عـلى مختصـين أثبتـوا أنـه أبكـم لا يتكلـم.

كثـير مـن القادمـين إلى المستشـفى لا يتحملـون مشـاهدة حـالات الإصابـات والحـالات الصعبـة التـي تبعـث عـلى الحـزن والاكتئـاب، فيأكلـون أصابعهـم ندامـة عـلى المجـيء للمستشـفى ويطلبـون العـودة إلى سـجونهم، أرجـلًا مقطعـة، بطونًـا ممزقـة مكسـوة بشـبك كـي ينبـت الجسـد عليهـا، أكيـاس يحملهـا بعـض المصابـين نظـرًا لمـا ألمّ بهـم لعدم مقدرتهـم عـلى دخـول دورة المياه، حـالات شـلل، مـرضى القلـب والذبحـة صدريـة، لا أحـد مـن نزلاء المستشـفى يخلـو مـن علـة، ومـن يـأتِ ويـرى تلـك المناظـر يُصـب بمـرض وعلـة أخـرى.

9

في وسط هذه الأجواء الممتلئة بالألم والوجع ورائحة الدم، كانت الرسائل التي تأتيني من السجون لها الأثر الطيب في نفسي، كم كنت أنتظرها وأفرح لها من إخواني الأسرى في السجون الأخرى، كم كنت أتحرق شوقًا للتعرف على الأسرى القادمين ومعرفة قصصهم وحكاياتهم.

لكي أتعرف على المستشفى والنزلاء فيها؛ غدوت بعجلاتي نحو غرفة رجل ثائر أمضى ثلاثة عشر عامًا، صاحب ابتسامة لا تنقطع، كثير الطرفة، ترك فينا ذكراه، ترك السجن أثره، فيه رجل رشيد أصيب بالفشل الكلوي، يعود من غسيل الدم «الديالیزا» كأنه بقايا إنسان استنفدت قواه

في غرفة غسيل الدم، ذلك الرجل الصابر المحتسب كان يكنى بأبي عمار.

أبو عمار رجل حكيم رشيد، حكم عليه بالمؤبد مدى الحياة، مكث مدة طويلة جدًا بالسجن، أصيب بالفشل الكلوي الذي نهش جسمه وجعله عجوزًا وكأنه بعمر أبي رغم أنه كان بريعان شبابه، مرت أكثر من عشر سنوات، وهو يحاول أن يجد حلًا مناسبًا للعلاج إلا أن الاحتلال لم يسمع نداءه بل العالم أكمل، سنوات طويلة مرت عليه وهو يموت ببطء.

لم يألُ أهله في الضفة المحتلة جهدًا في تفعيل دور السلطة الفلسطينية للتفاوض من أجل السماح لابنهم أبي عمار بزراعة الكلية عن طريق ابن أخته الذي استعد أن يتبرع لخاله بإحدى كليتيه كي يبقى خاله على قيد الحياة، ولأن إدارة سجون الاحتلال ترفض أن تعطي الأسرى الذين يعانون من فشل كلوي حق زراعة الكلى؛ قامت عائلة أبي عمار بدور جبار في إنقاذه ووضع صورته أمام السلطة الفلسطينية كي تسمح له إدارة السجن بأن يقوم ابن أخته بتقديم كليته له.

كل ما طالبت به عائلة أبي عمار هي زراعة الكلى له، لم يطالبوا بالإفراج عنه لمعرفتهم أنه محكوم بالمؤبد مدى الحياة ولن يفرج عنه إلا بطريقة واحدة: صفقة تبادل أسرى، هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تحرر ابنهم بعد خمس سنوات من العذاب الذي رآه أبو عمار في غرفة غسيل الكلى، التي تركت آثارها على جسده ووجهه الذي اهترأ، والشيخوخة التي نالت منه حتى بدأ كأنه أكبر من عمره بكثير، وكأنه بعمر والدي.

بعد إصرار من وزارة الأسرى والجهد الذي قامت به حصل أبو عمار على إذن بالسماح له بالزراعة، وبعد خمس سنوات أخريات نفذوا الموافقة، هذا هو الاحتلال في المراوغة والتهرب من حقوقنا كأسرى وكفلسطينيين.

كان أبو عمار في تلك السنوات العشر يتجرع السم من شدة الألم، يوم أن ذهب للمستشفى لزراعة الكلية؛ كان محاصرًا بالسلاسل الحديدية من يديه وساقيه، ألقوه على سرير وقيدوا يديه وساقيه بالسرير وجاؤوا بابن أخته على سرير، حقن بإبرة المخدر، غاب عن الوعي، ثم قرر ضابط الأمن أن يزيل الكلبشات رغم أنه لا داعي للكلبشات، هذه تقديرات خاصة بحجة ضابط الأمن.

نجا أبو عمار من الموت ومن العذاب على يد ابن أخته وأيدي المتضامنين معه، بدأ أبو عمار يتماثل للشفاء وبدأت تعود إليه صحته التي تاق إليها على مدار عشر سنوات.

جرى الدم في صباحه الذي كسته الظلمة في سنوات المرض وظلمة السجان، وعادت الابتسامة ترتسم على محياه، وغابت الشكوى من حديثه، وحلّ مكانها حديث الأمل والأهل والأحبة، وما هو إلا عام بعد إجرائه العملية وبعد إبرام صفقة تبادل الأسرى بين الاحتلال وحركة المقاومة الإسلامية حماس صفقة وفاء الأحرار.

كان لأبي عمار نصيب في هذا الوفاء فحُرر بعد أن أمضى عشرين عامًا في السجن نصفها قضاها في مسلخ سجن الرملة، وعندما أُفرج عن أبي عمار في مشفى سجن الرملة كنت أنا في سجن نفحة الصحراوي. بحثت عن

اسمي في قائمة الأسرى المفرج عنهم فلم أجده، سلمت لقضاء الله وقدره ودعوت الله ألا يطيل هذا السجن ويكتب لي فرجًا قريبًا.

بعدما عرفت أني لم أحرر مع المحررين؛ بدأت أتفقد أسماء المحررين وأسماء الأصدقاء، فوجدت من بينهم اسم أبي عمار.

بعد عام من تحرره كتب لي طبيب سجن نفحة إجراء فحص في مسلخ سجن الرملة، فسافرت إلى هناك، فدخلت المستشفى، لم أجد أبا عمار ولم أجد أكرم ولم أجد بعض الأصدقاء.

انتابني شعور بالوحشة، شعور بالسجن، شعور بمرارة المرض والقهر، بعد طول السنين بين هذه الجدران، تساءلت لماذا تركت في هذا السجن اللعين ولم أحرر مع أصدقائي الذين عشت وإياهم سنوات الألم والوجع والحرمان؟، من يعيدني إلى الرفقاء؟ هدأت نفسي ثم دعوت وكلي أمل أن القادم أجمل.

أثارني حديث أبي عمار الذي كان فصيح اللسان، يختار أعذب الكلمات وأجملها، قال إنه تسنى له في يوم من الأيام أن يقوم بتهريب هاتف قاصدًا أن يتحدث مع أخته التي تتخذ من المملكة الأردنية الهاشمية سكنًا لها، عندما أخبرها أنه أحمد أغمي عليها من شدة الفرحة، وضج البيت من حولها كلٌ يريد الحديث معه.

كانت المحادثة تفيض بالدموع، يكسوه الشوق والحنين، يجملها الأمل، بعد زيارتي لأبي عمار قررت أن أجري زيارة لأبي حسن، ولكن في يوم آخر؛ لأن الألم نال مني ما ناله.

توجهت بوجهي نحو زنزانة أبي إسماعيل صاحب البنية القوية رغم تقدمه في السن، صاحب الصوت الثائر الذي يرفض السكوت على ضيم، كان في هدوئه يكره الحديث ودعابته، أسرّ بابتسامته التي يجملها خلوها من الأسنان، فالسجن أصابه بمرض ضغط الدم والسكر، وحكمت محكمة الاحتلال عليه بالسجن مؤبدًا مدى الحياة.

كان يملأ وقته بالسجن بصناعة تحف جميلة من الخرز، استيقظت عليه في أحد الأيام فجرًا على صوت قرعه للباب، كان يمسك بيمينه حلة كبيرة ويدق بها باب الزنزانة وكأنها طبول حرب قد قرعت، ومزيد من الأصوات أيقظ نزلاء المسلخ، بل أيقظ الأقسام المجاورة التي يسكنها الجنائيون.

كان عندما يسأل عن طرق باب الزنزانة يصرخ ويبكي، يتهمهم بأنهم يريدون قتله، سألته مشفقًا عليه: «ايش في يا خال؟»، وكانت كلمة خال كلمته التي يخاطب بها جميع الأسرى حتى إنه كان ينادي ابنه بها وكنا نضحك عندئذ وأصبحت أناديه بها، ردّ عليّ وصوته له أزيز كأزيز المرجل: «تدري يا خال مش قادر أتنفس»، بعد تباطؤ طويل جاءوا إليه وأخذوه إلى مستشفى خارجي وأعادوه إلينا عصرًا والمحلول مشبوك في يده وهو يمشي بخطوات ثقيلة.

كان كلما رزق بحفيد وضع صورته على الحائط، كان في آخر مرة رأيته فيها يضع ثلاثة وسبعين حفيدًا وحفيدة كلهم جاءوا إلى الدنيا وهو في السجن. لا أذكر أن تخلت زوجته عن زيارته يومًا، كانت تحمل

قضيته وقضية الأسرى وتحمل على عاتقها قضية حاضرة وفاعلة في الوسط السياسي والشعبي، توفي عن عمر السبعين بعد أن أمضى عشرين عامًا بين جدران السجون.

حدثني أحد الأسرى أن جثة أبي إسماعيل كانت ملقاة في مسلخ الرملة على ناصية في ناحية الممرات الخارجية للسجن، كان يحيط به السجانون يدخنون ويضحكون ومغطاه بقطعة قماش، قلت حينها: «لا كرامة حتى لميت».

حملت جسدي المثقل وأخذت أزور رفقاء القيد الذي كان من ضمنهم الشاب الخلوق عمر الثائر الأحمر من شدة حدة عينيه كان بربيع شبابه ابن خمس وعشرين عامًا، ذا بنية جسدية لطيفة طويل القامة لا هو بسمين ولا هو بنحيف، فصيح اللسان ذكي العقل اعتقل في السجن في الثمانينات، ومكث بزنزانته؛ لأن أبناء مجموعته أخذوه بسوء الظن بدون أدلة، لم يتحروا الحقيقة، وقع عليه الظلم بالتهمة زورًا وظلمًا وقيل إنه يعمل لصالح الاحتلال.

الظلم الذي وقع على عمر المظلوم جعله بأزمة أحقاد وضغائن لا تجاه الظالم فقط بل السجن وبعض الأصدقاء الذين سكتوا على ظلمه. فأصبح ناقمًا عليه، عمر لم يستطع احتمال الظلم الذي فرض ووقع عليه فكان هذا ابتلاء.

جرى التحقيق مع عمر على أيدي أبناء تنظيمه، بين الأسرى في كل السجون وقد اغتالوه معنويًا، بل حطموه وحطموا ذويه، فرض عليه

العزل، لا أحد يقبل على نفسه أن يُرى واقفًا معه؛ لأنه متهم بالتعاون مع الاحتلال، ما حدث مع عمر جعله لا يفارق جهاز التنفس لأكثر من ربع ساعة، وصل وزنه خمسين كيلو جرامًا، بعدما كان يمتاز بوزن رياضي مثالي، كان طويل القامة، نحيفًا، ضعيف البنية، له نظرات حادة، لا يرف له جفن، يتحدث فقط للضرورة بكلمات قليلة وحركات قليلة في يده للتعبير؛ لكنه رغم هذا بقى كما عهدناه يمتاز بالذكاء، استكمل مسيرته الدراسية وحصل على ماجستير من الجامعة العبرية التي سمحت بها إدارة السجن، حيث كان متفوقًا باللغة العبرية.

عمر من الأشخاص الذين يتذمرون من الدخان نظرًا لضيق في التنفس، وهذا الأمر بحد ذاته يجعله يطلب من الأسرى ألا يدخلوا عليه في زنزانته مدخنين؛ نظرًا لصعوبة التنفس الذي يعاني منه.

دخلت غرفته وألقيت عليه تحية السلام وأخذنا نتسامر ونتناقش، كانت الهاوية لم يكن الذي عرفته وسمعت عنه، أصبح عمر ملحدًا ينكر وجود الله بعد أن غدر به أصحابه وحرقوه حيًا بتلك السمعة التي أشاعوها عليه، كانت العزلة لا تزال مفروضة على عمر ولكن بشكل أخف، يوم أن تعرفت عليه رغم أنه كان قد مرّ على هذا الجرح عشر سنوات، ورغم أنه بريء كان يمر بحالة من الانكسار التي لم تُجبر رغم إعلان براءته.

قضى عمر خمسة عشر عامًا، كنت أنا دومًا على الاطلاع بأحوال وأخبار الأصدقاء، سألت أحد أبناء تنظيمه الذي لم يشارك في قذفه بالتهمة الباطلة «كيف عمر؟ وما هي أخباره الآن بعد أن أفرج عنه؟»

قال لي: «إنه الآن يصلي بعد أن جعله أصحابه يلحد وتحسنت صحته وفارق جهاز التنفس وتزوج وحصل على وظيفة، وهو الآن يمارس حياته في الخارج كأي إنسان طبيعي».

تذكرت وقت أن جاء إلينا في مسلخ الرملة مجموعة من الأسرى المدخنين، رفض متعب (اسم مستعار) أن يدخلهم إلى غرفته، وطلب منهم أن يدخلوا زنزانة عمر، رفض عمر وشرح وضعه الصحي مع أنه لا يحتاج إلى تفسير، رفع متعب صوته غاضبًا ومحاولًا بذلك أن يحقق ما يريد، فألقى على عمر شتائم كغزارة المطر، وقال له متعب: «يا جاسوس».

أراد بهذه الكلمة أن يحطم معنويات عمر، هذه الكلمة فتحت جرحًا كبيرًا لدى عمر، كان يعلم أن عمر ليس بجاسوس وأنه ظلم، لكنه خُلُق من «إذا خاصم فجر»، لم يكن هذا الخُلُق الذميم حالة عفوية حصلت مرة واحدة، لكن الأيام أكدت لي أن هذه الأخلاق الدنيئة جزء من طبعه وسلوكه.

10

بعد عدة أشهر من اعتقالي والأهل يبحثون عن أخباري عند كل من يمكن أن يطمئنهم ويهدئ من روعهم، ويبعثون لي سرًا من يتفقدني في مستشفيات الاحتلال، كان صاحبنا متعبًا بحكم أنه يزار بشكل متحرر قليلًا من الإجراءات الأمنية؛ لكونه قد تذرع بوضعه الصحي الذي بدأ كأنه تردى، تمكن من إدخال تليفون خلوي خبأه بالزنزانة ولم يُعلم به أحدًا من نزلاء المسلخ، وكأن له أهلًا قلقين عليه ونحن لسنا كذلك، لم يراعِ حالة من يعيشون معه ولم يرق قلبه للقصص الإنسانية التي يراها في المَسلخ.

استحوذ على التليفون وحده رغم أن الثمن الذي سيدفع في حالة جلب التليفون لن يدفعه وحده، وإنما سيدفعه الجميع، هذه سياسة إدارة السجون، عقاب جماعي، العقابات تقع على الجميع حتى إنها تصل إلى الأهالي القادمين لزيارة أبنائهم، لم أكن أتوقع أن من بيننا من يحملون هذه الأنانية وهذه الخسة، انقضت محكوميته بعد عام من قيامه بهذا الخلق الذميم وعاد لأهله يتنفس الحرية.

أما نحن الذين تحرّقت قلوبنا وقلوب أمهاتنا لسماع أصواتنا فما زلنا في السجن نروي فعله الدنيء الذي مضى عليه أكثر من اثني وعشرين عامًا، لكنها المواقف التي تظهر معادن الرجال.

من خلال زيارتي للأسرى بمستشفى سجن الرملة تعرفت على رجل رشيد، كبير بالسن يدعى بأبي الحسن الغزي حيث انتقل بعد فترة وجيزة للزنزانة التي مكثت فيها، ورأيته في أول مرة وهو خارج بعد الاستحمام مرتديًا سروالًا قصيرًا يستعين بالووكر في تنقله بين السرير والحمام.

جسده كان عبارة عن ثغرات مليئة بالحفرات، فالرصاصات تركت بصماتها على يديه ورجليه ورأسه الذي مُس بفروة رأسه ونال منه وترك الرصاص آثار خطوطه على رأسه توحي بأن رصاصات مرت من هنا.

نظرت في بطنه فرأيت آثار فتحة كبيرة في بطنه لم تبرأ بعد، جلس على سريره، جاءه أكرم وغيّر له على جرحه ووضع ضمادات ولاصقًا لتثبيتها على جرحه، سألته عن الإصابات وأسبابها؛ قال: «كنت عائدًا

بسيارتي من مدينة غزة إلى بيتي في مدينة رفح، مررت بمستوطنة نتساريم على مفترق الشهداء (وسمي المفترق بهذا الاسم نظرًا لكثرة الشهداء الذين روت دماؤهم الطاهرة ذلك المفترق). عند وصولي إلى المفترق فتحوا عليَّ فوهات بنادقهم من جحور لا يمكن لك أن تراهم منها كزخات المطر، بأدواتهم التي يقتلون بها». ثم أخذ نفسًا عميقًا وهو يستذكر مستكملًا: «لقد أطلقوا عليّ وابلًا من الرصاص لم يطلق على كتيبة عسكرية»، وأخذ يفسر ويمثل لي بيده ما حصل.

بالنسبة لتلك الحفرة الكبيرة التي بصمت أثرها على بطنه؛ كانت نتيجة النار التي أطلقوها على السيارة التي كان يقودها، وتوقفت قسرًا» دون سابق إنذار، ومنعته جراحه من النزول من السيارة، بعثت قوات الاحتلال الجنود لكي يحيطوا بالسيارة وأرسلوا الروبوت وأمسك بأبي الحسن من بطنه وأخرجه من السيارة؛ فخلفت هذه الجريمة أمعاء ممزقة وجلدًا ذائبًا.

روى لي أحد الإخوة أن المشهد عرض على شاشة التلفاز وروى لي أيضًا أن الروبوت أمسك به من بطنه، لم يكن أبو الحسن يحمل معه في السيارة أي شيء يستدعي هذا الجنون وهذا الإجرام، بعد أن استفاق من غيبوبته ورأى ما حل به، سأله المحقق: «هل كنت تريد أن تقتلنا؟»، قال: «نعم».

على هذه الكلمة أدانوه وحكموه سبع سنوات مع أنهم لم يجدوا معه وسيلة تمكنه من القتل، ومع أنه في حالة مرض وإصابة وفي حالة عقلية غير مستقرة، كل ساعة كان يفقد بها أعصابه.

أحيانًا تتغير شخصيته وأجد نفسي أمام شخص آخر مختلف كليًا عما كنت أعرفه، كان بالفعل مريضًا بنوبات يخيل إليه أننا على ظهر باخرة والباخرة في مثلث برمودا، ونحن الذين معه مجموعة من الجن خطفناه وجئنا به إلى هذا المكان، ويدلل على صحة ما يقول بالمدخنة الشاهقة التي ترتفع من إحدى مباني السجن الكبيرة والتي تأخذ شكلًا يشبه إلى حد ما الباخرة وما تحمل فوقها، جئته في إحدى المرات، جلست على سريره أخرج من سرواله ولاعة صغيرة وأشعلها وبدأ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويسمي بسم الله الرحمن الرحيم ويستحلفني إذا كنت جنيًا أن أخرج من هذا المكان، وطوق عنقي بيديه كاد أن يخنقني؛ قلت بنفسي: خروجي من هذا المكان خير لي ويقول عني جن، أفضل من أن أموت بين يديه»، وهو على يقين أني أحد الجن الذين يتربصون به ويريدون النيل منه.

احتلالنا الغاشم لم يرحم صغيرنا لكي يرحم مصابا كأبي الحسن الغزي، أدانوه وحكموا عليه سبع سنوات رغم مرضه، من الإرهاصات التي ميزت أبا الحسن الغزي رغم سجنه ومرضه أنه كان يمتلك زوجة صابرة ومحتسبة ما كفّت يومًا واحدًا ولا تخاذلت عن تحرير زوجها، فالطيبون دائما للطيبات.

كنت سجينًا لسريري طيلة الوقت لا أفارقه إلا للضرورة أو عند شعوري بالملل أو التعب نتيجة الاستلقاء، وسرعان ما أعود إليه من تبعات الاحتلال وقساوة الألم.

كنت أشاهد على شاشة التلفاز، الذي تم تحقيقه بآلاف الأطنان من أجساد الأسرى من إضرابات وخطوات. أشاهد المجازر يوميًا التي لا تدع شعبنا ينهي حداد مجزرة حتى يفاجئه الاحتلال بمجزرة جديدة، لم يجف بكاء أم على ابنها ليلحق الأب ابنه في نفس الموكب.

في ظل هذا العدوان الغاشم المتواصل على أبناء شعبي ظهرت المقاومة بأدوات متعددة فاجأت العدو بنوعياتها وزخمها وردها السريع، كنت أراقب تسارع الأحداث من على هذه الشاشة وأنا في الزنزانة سجين السرير، أتحسر أن تبرز الخيل بالقنا وأنا مشدود عليَّ وثاقيَ.

ما أصعب هذا الشعور وأنت ترى الحياة من شاشة التلفاز دون أن يكون لك دور فيها! ما أصعب أن يأتيك خبر زواج أختك أو أخيك من جارك الذي زاره أهله! ما أصعب أن يأتيك صور إخوانك فلا تعرف منهم أحدًا من طول البعد وقلة اللقاء، وتبحث عن جارك الذي سجن حديثًا يعرّفك عليه، ما أصعب أن يكون التواصل بينك وبين أهلك فقط عن طريق جيرانك الأسرى المسموح لهم بالزيارة، ما أصعب أن تتلقى سماع خبر وفاة أحد من والديك أو كليهما عبر المذياع!

الحياة لم تكن غريبة أن تنام على خبر جنازة أحدهم وتستيقظ على خبر زفاف آخر، تستفيق على صوت زغرودة لا تعلم من أطلقها. أم عريس أم والدة شهيد، أن ترافق أحدهم بيوم زفاف فيجمعك الطريق بالعزاء فلا يسعك إلا وتبارك للعروسين الأول عريس والثاني شهيد، إنها غزة التي

كنت أراها كسندريلا وهي رغم أوجاعها تبث الأمل تجمع بين اليأس والإصرار، الألم مع الأمل، الحب والحرب.

ومع ذلك الحياة تستمر بشكلها الطبيعي لابد للشاب أن يتزوج وللطالب أن يتخرج وللنسل أن يستمر والحياة تستمر فنحن أيضا نحب الحياة.

11

كنت مستلقيًا قسرًا على سريري كعادتي منذ أن أصبت؛ وإذ بصوت صرخات الشيخ المسن الثائر تنبعث من زنزانته زلزلت قسم المرضى، فهمت من ذلك الصوت أن هناك حدثًا كبيرًا، أمسكت بجهاز التحكم وفتحت قناة الجزيرة والجميع أسرع بالتوجه إلى التلفاز ليرى ماذا يجري على قناة الجزيرة، رأينا الأبراج الأمريكية الضخمة تتهاوى بفعل الطائرات التي يقودها شبان عرب سئموا من ظلم أمريكا وانحيازها للعدو الصهيوني، حدث هزّ أمريكا وكان له تداعياته على دول مختلفة منها أفغانستان والعراق والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات والقضية الفلسطينية.

بعد فترة وجيزة من تلك الأحداث جاءني إلى مسلخ الرملة مدير المخابرات الذي تولى عملية التحقيق سابقًا، وكان معه رجل قصير القامة وأصلع الرأس عرّف عن نفسه بأنه مسؤول عندهم يريد أن يسمع وجهة نظري فيما حدث بقصف الأبراج الأمريكية، كان الحديث يدور بيني وبينه وضيفه الأصلع لم يتفوه بعد، لم أسمع صوته منذ أن أدخلوني إلى غرفة الاستجواب التي تجمع ثلاثتنا، أجبته: «إن الأيام ستثبت أن الصهاينة لهم دور في هذه الأحداث كي يوظفوها بما يتناسب مع طموحاتهم وأطماعهم»؛ فابتسم مستخفًا بما قلته وضيفه يصمت ولم يعلق ولم يظهر عليه ردات فعل في قسمات وجهه، وعاد يسألني أسئلته السابقة التي سألني إياها بأول تحقيق لي «هل أصبحت تدخن في السجن؟»، شممت من سؤاله رائحة المراهنة على تغيري في السجن ظنًا أن هذا الغبار المغلف قد يستهويني فأجبته متحديًا: «لو أعلم أني سأدخن سأقطع أصابعي».

بدأت علامات الدهشة والاستغراب تظهر على وجهه وترجم الإجابة لصديقه الأصلع بعد أن بدأت عليه علامات عدم الفهم، لكنه بقي واقفًا كالصنم لم يهتز له جفن، ثم أخذ يستكمل باقي الأسئلة: «إن الضرب سيتوقف في السجن، بمعنى أننا لا نريد ضربكم «شعرت أنه يدرس ردات الفعل، أجبته: «إنه لن يمر الضرب علينا بدون أن نرد الضرب بالضرب».

شعرت من خلال أسئلته الماكرة أني في معركة معه يظن أني ضعفت في السجن أو جبنت أو أنه انتصر عليّ.

قال لي: «لعله يأتي يوم تكون أنت فيه تمثل الشعب الفلسطيني وأنا أمثل شعبي ونجلس للتفاوض»، لم أجبه، التزمت الصمت بعد الانتهاء من هذا اللقاء أعادني السجان على كرسيي المدولب إلى زنزانتي، وبعد أيام زارتني قناة CNN الأمريكية لإجراء مقابلة تلفزيونية برفقة مدير المخابرات، قدّرت أن بالأمر حيلة مذيع ومدير مخابرات قد تكون لأخذ بعض الأجوبة لتصديرها إلى المجتمع الأمريكي بغرض التحريض علينا وتشويه نضالنا.

أجرى المقابلة المراسل الأمريكي المشهور بوك ساون؛ سألني سؤالًا أراد من خلاله أن يسمع إجابة يمكنه أن يجرّم المقاومة من خلالها وليظهر أننا لسنا أصحاب قضية عادلة تستحق من العالم أن يقف معنا ويساندنا؛ قال: «ما ينتظركم من الحور العين يذهب بكم إلى التسابق على الشهادة؟»

أجبته: «إن من يسأل هذا السؤال يريد أن ينزع عنا شرعية المقاومة وأن يصرف أنظار العالم إلى أن ما يدفعنا للمقاومة هو الدافع الجنسي الذي نود إشباعه من الحور العين، نحن شعب واقع تحت الاحتلال سلبت أرضه وغالبيته في الشتات يعيشون أوضاعًا اقتصادية بالغة في الصعوبة، نتعرض لإجرام ممنهج، مجازر لم تتوقف، أقاموا كيانهم على جماجم أبناء شعبنا، شعبنا يقتل وتنسف حقوقه على مرأى ومسمع من العالم، أليست هذه الأسباب تدفع أي شاب غيور في العالم أن يقاوم ويدفع الظلم عن نفسه ونحن آخر شعب ما زال يرزح تحت نير الاحتلال؟!، ليست الحور العين هي التي تدفعنا للشهادة بل ظلم الاحتلال هو الذي يدفعنا للشهادة».

سألني: «كيف شعرت وقتها وأنت ذاهب لتنفيذ العملية مرتديًا القنابل المتفجرة، متعجبًا أنني لم أكن خائفًا؟»

أخبرتـه: «إن شـعوري كان عاديًـا؛ لم أشـعر بالخـوف إطلاقًـا، وكأني ذاهـب إلى زيـارة صديـق».

أردت مـن إجابتـي أن أظهـر صلابـة الفلسـطينيّ الثائـر عـلى ظلـم الاحتـلال والمتمسـك بأرضـه والـذي يسـتحيل كسره أو التآمـر عـلى قضيتـه، وظهـرت الدهشـة في عينيـه وفي قسـمات وجهـه وكأنهـا تقـول أي نـوع مـن المناضلـين أنتـم؟!

بعـد فشـلهم في اسـتجوابي، إجابتي لم تعـد ترضيهـم ظنًـا منهـم أنني مع السـجن قـد تغيرت فلـم يدركـوا أن عزيمتي كل يـوم تـزداد.

عـدت إلى حيـث سـيرتي الأولى بمستشـفى مسـلخ الرملـة، أتحـرّق ألمًا من وعثـاء السـفر، لا ينفـكّ لسـاني عـن الدعاء بالشـفاء والعـودة للمشي عـلى قدمي اللتين طـال الزمـان عليهـما ولم تعـودا، كانـت أمنيتي الوحيـدة في ذلـك الوقـت أن أعـود أسـير عـلى قدمـي ولـو حتـى لم أمـشِ بشـكل معتـدل، طـال جلـوسي في الفـراش وأنـا أنتظـر أن يجبر عظمـي المتهتـك كـي أتحـرر مـن قسـاوة البلاتـين الـذي يحيـط بقدميّ من السـاق إلى الفخذ التي كانت مغروسـة بالعظـم ببراغي.

مـع نهايـة كل شـهر كنـت أقـوم بحيـل وخطـط نضاليـة أنـا ومـن معـي مـن الأسرى ضـد إدارة المستشـفى لأخـذ صـورة الأشـعة للتأكـد مـن أن العظـم المتهتـك التـأم وجـبر، وكنـت أذهـب إلى صـورة الأشـعة مليئًـا بشـوق وأمـل أن يقـول لي الطبيـب جـبر عظمـك ولا داعـي للبلاتـين، وكان أسـوأ خـبر بالنسـبة لي في تلـك الفـترة حـين يقـول لي الطبيـب مـا زال العظـم مهشـمًا ويحتـاج لبعـض الوقـت كـي يجـبر ويـبرأ.

مرت خمسة شهور على الإصابة وفي كل شهر يخبرني نفس الإجابة: «ليس الآن، تحتاج المزيد من الوقت».

أقول:» أي إصابة هذه التي تحتاج إلى كل هذا الوقت للشفاء؟».

رأيت ما حل بالمصابين في الانتفاضة الأولى إن أصيب أحدهم ولم يطرح أرضًا يبقى يعدو على قدميه حتى يصل إلى مكان آمن مكتظ بالناس ثم ينقلونه إلى المستشفى، وفي اليوم الثاني يسير على قدميه بشكل غير معتدل نسبيًا وبعد أسبوعين يعود ليسير على قدميه بالشكل المعتاد.

ظننت أن حالتي مشابهة، لكن الأمر مختلف؛ لأن آلة القتل التي كان يستخدمها الاحتلال ضدنا قد اختلفت، في زمن غابر كانوا يقتلوننا بالرصاصة أما في زماننا فيقتلوننا برصاصة أيضًا ولكنها متفجرة، هذه الثانية هي التي أعاقتني عن المشي كل هذه المدة، ولا أدري متى تثور براكين الألم ومن علة الجلوس على السرير التي طالت ومللت منها.

كسرت الروتين المعتاد، بعد خمسة أشهر أصبحت أخطو على قدم واحدة مستعينًا بعكازتي، أستند بيديّ عليهما كي أخفف الضغط على قدميّ، السير على عكازتين حررني من قيد واحد وهو قيد الجلوس على السرير، وحين خطوت أول خطوات السير غمرت الفرحة قلبي ولم أصدق أني أخطو وإن كان على عكازتين. المهم أني تحررت من القيود بشكل قليل، لكن قدمي اليسرى كنت أبقيها معلقة لا أستطيع أن أسير أو أن تمسها الأرض من عِظم الألم الذي يسكنها.

لقد كانت إصابتي فيها بالغة، لقد تعرضت لإصابتين فيها، إصابة تحت الركبة وصل ضررها إلى المفصل، والثانية فوق الركبة، أما ساقي اليمنى فكانت الإصابة فيها تحت الركبة خلّفت أضرارًا وآثارًا أوصلتني للسير على عكازتين؛ ما سهلّ عليّ ذهابي لدورة المياه بدون مساعدة أحد، هذه وحدها نعمة لا يعرف قيمتها إلا من فقدها، كنت أعتبرها جهادًا في سبيل الله.

وبعد مرور خمسة أشهر من الأسر بأول سنة من اعتقالي، أخذ المصور الصهيوني يلتقط لنا عدة صور، بعد سماح إدارة السجن بتصويرنا أربع صور لكل أسير على حسابه الخاص، أمر ضابط القسم بوضع قطعة قماش خلف الأسير الراغب بالتصوير كي تخفي معالم السجن؛ جاء دوري للتصوير سرت على قدم واحدة بمساعدة عكازتي الطويلتين.

مرّ أسبوع على تصويرنا، وحصلت على الصور، واحتفظت بها وبدأت أفكر في كيفية إرسالها من السجن كي يراها الأهل، لكي تشبع أمي من رؤيتي ويرتد لها بصرها الذي خف كثيرًا لشدة بكائها، ويقبلني من خلالها أبي الذي لم يهدأ له بال، ولم يغب عن ذاكرتي، عرضت طلبي في السجن بين كنف الإخوة، تبرع أخ من إخوة القيد والألم والمعاناة القادمين إلى مسلخ سجن الرملة أن يأخذها ويوصلها لعائلتي.

كان وصولها إلى أيدي العائلة وخاصة أمي فرحة لا تعادلها فرحة، خاصة أنهم رأوني واقفًا على قدميّ وإن كنت مستعينًا بعكازتين إلا أنهما تشيران إلى تحسن وخطوة في طريق التماثل للشفاء.

12

دخلت الشهر السادس من الأسر، وكعادتي في كل شهر أبذل جهودًا مضنية من أجل إجراء صورة أشعة لمعرفة ما إن جبرت عظامي والتأمت أم ما زال العظم متهالكًا يحتاج إلى مزيد من الوقت.

خرجت هذه المرة على عكازتين مستعينًا بنفسي بدون مساعدة من أحد رغم أن الوقت ومسألة الوقوف والمشي يتعبني ويزيد من الألم، كانت النتيجة التي أريدها ولا أحب أن أسمعها: ما زال العظم مهشمًا ويحتاج للإصلاح، عدت إلى زنزانتي مكللًا بخيبة الأمل كنت أريد أن أغير من هذا الواقع الأليم، ولكنه يستعصي عليّ، اهتديت إلى طريقة أدجن بها قدميّ، قدمي اليسرى لا تلامس الأرض.

قلت إنها بعد الإصابة ما أن تلمس الأرض حتى تثير براكين من الألم تتداعى لها سائر الأعضاء بالسهر والحمى، فجئت بعلبة أسطوانية الشكل ووضعتها تحت قدمي وبدأت أدحرج قدمي عليها ذهابًا وإيابًا بحركة بسيطة، في المرات الأولى كنت أقوم بهذا العمل لثوانٍ معدودة وأتوقف من شدة الألم وأنوي المواصلة، كما أني كنت أدفع فاتورة هذا العمل ونشاطي الصحي بعدها بساعات براكين من الألم تطاردني في كل لحظة أفرّ منها بالعقاقير المهدئة ووضع مسندين تحت قدمي آملًا أن ذلك سيخفف من الألم.

هذه فرصة للراحة والنوم أو حتى الأكل والشرب أو حتى القدرة على الإصغاء لحديث ما، رغم شدة الألم إلا أني عزمت على الإصرار والمداومة على هذا التمرين الذي سيهيئ قدمي على أن تعود وتدوس الأرض بدون ألم.

لازمت على التمرين الرياضي وأسندته بتمرين آخر، وبدأت أنزل قدمي اليسرى إلى الأرض وألامس بباطنها الأرض. كان الأمر شاقًا ومؤلمًا خاصة وأن لها ستة أشهر لم تدس الأرض ولم تعرف لها سبيلًا حيث كانت قدمي اليسرى كلها الأصابع وكفة القدم وجنبات القدم وظهر القدم ما أن تلمس شيئًا أو يلمسها شيء إلا وأشعر بتيار كهربائي يلامس جسدي وشعور يقول لي احترس من اللمس، كنت أتمنى أن أنتعل حذاءً لو لمرة واحده منذ اعتقالي، كحال الطفل الصغير الذي تغمره الفرحة وقت شراء حذاء جديد.

كنت أتحرق شوقًا، بل أتألم إلى اللحظة التي أرى فيها نفسي أخطو على الأرض بدون مساعدة من أحد، بدون عكازات.

أخذتني الظنون بعيدًا، وظننت أن العصب لا يعمل وأني لن أستطيع المعاودة للمشي مرة أخرى، وإن قدّر الله لي أن أعود وأخطو على قدمي فلن تكون مشيتي صحيحة وخطواتي معتدلة، مشاعر كانت تغزوني عند هجمات الألم، لكني سرعان ما أفوض أمري إلى الله وأرفع يدي وأتدثر بالدعاء وأسلّم أمري لله أيًا كان؛ فكل أمر المؤمن له خير، وقلت في نفسي: «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل».

لو لم تكن هذه المعاناة كنت لأتفرغ للقراءة من العلم وقراءة الكتب، فخير صديق في الزمان كتاب، وكيف إذا كان هذا صديقًا في السجن؟ فلا يملأ الوقت ويغذي الروح ويشعر الإنسان بالرضا إلا العلم، لكن خطورة الإصابة واستمرار الألم يحولان دوني ودون هذه الأمنية.

جرت الأيام تشبه بعضها بعضًا، كل الأيام تشبه الأيام الماضية في مسلخ سجن الرملة اللعين الذي يعده الأسرى المحطة الأخيرة للأسير قبل السفر إلى الدار الآخرة.

الراحلون إلى الدار الآخرة من الأسرى المرضى مروا عبر هذه المحطة، الأصدقاء الذين تعرفت عليهم الأسير الشهيد محمد أبو هدوان (أبو الحسن)، الأسير الشهيد جمعة موسى، الأسير الشهيد مراد أبو ساكوت، نعيم شوامرة، يوسف العرعير، زهير لبادة، ومحمد أسعد وغيرهم كثير.

روتين المستشفى القاتل ومشاهدة حالات متنوعة من الأمراض تشعر الشخص بالقلق والخوف من أن يصاب بما أصيب به هؤلاء المرضى خاصة لمن حكم بحكم طويل، فالمستشفى تجلب المرض هذا أكثر شيء يقلق الأسير المحكوم حكمًا طويل المدى؛ لأنه يعلم أن هذا المرض سيرافقه طوال سنوات حكمه الطويل، أي أن معاناته ستطول وسيشمت به الأعداء، وسيكون تحت رحمتهم.

كنت أحمد الله دومًا على مصابي الجلل، فرغم ألمي وإن طال إلا أنه سيبرأ وأشفى وأعود للسير على قدمي، أما المرض فغالبًا ما يلازم صاحبه طوال سنوات السجن.

الحس الديني والالتزام لدينا نحن الأسرى كان عاليًا وماثلًا يتجلى في سلوكهم وظواهرهم وإنصافهم وصيام الاثنين والخميس، ومنهم من كان يزيد على ذلك. كان التنافس بيننا في حفظ القرآن والتزود من العلم الشرعي وغض البصر وقيام الليل، لقد كنا كخلية نحل متجمعة.

مرت عدة شهور من اعتقالي وعدة شهور من الإصابة والبلاتين الذي يطوق قدمي بعدما أخذت خطوة نضالية ضد إدارة المستشفى مطالبًا بإزالة البلاتين، طلعت كعادتها بحجج لا صحة لها، وعندما واصلت إصراري على ذلك وإقدامي في خطواتي استجابوا وأزالوه.

وعندما أزالوه تحررت من قيد لازمني وقيدني أشهرًا، ليلًا ونهارًا منعني من أن أتقلب في فراشي، ألزمني النوم على ظهري حتى سئمت من ذلك، وبعد إزالة البلاتين بأسبوع فقط، وقبل أن أستكمل مرحلة العلاج

التي تتمثل في العلاج الطبيعي الذي يؤهلني للمشي؛ جاءني الضابط بالليل وبعد تغليق الأبواب، أخبرني أني مرحّل إلى سجن شيكماه صباحًا؛ فسألت: «إلى السجن؟» أجابني الأسرى إنه سجن عسقلان.

تفاجأت بخبر الترحيل، سلمت الأمر لله، توضأت وصليت ركعتين ودعوت الله أن يسهّل لي سفري، وأن ييسر لي أمري في السجن، فالسجن حياة جديدة لم أعشها تختلف عن حياة المستشفى خاصة لمصاب مثلي ما زال يعاني من إصابته.

بعد عد الصباح أخبرني ضابط العد أنهم قادمون إليّ لأخذي إلى البوسطة، وطلب مني أن أكون جاهزًا للترحيل، لم أفهم القصد منه وسار بي في دهاليز لا أعرفها. خرجت على عكازتي أسير على قدم واحدة، وأما القدم الثانية فكنت أرفعها عن الأرض؛ لأن البلاتين قد أزيل عنها قبل أسبوع فقط، بالإضافة إلى الإصابة البالغة فيها.

بطريقي عبر حافلات البوسطة؛ لم يعرف سائقها أن المطبات صنعت لتخفيف السرعة متجاهلًا أننا نرتطم بها من المقاعد الحديدية ونحن مقيدو اليدين والقدمين ومعصوبو العينين.

تصعبت من حمل متاعي من ملابس وغطاء وأنا أسير على عكازتين، كان سفرنا على هذه الحالة من مشفى الرملة في مدينة الرملة إلى سجن شيكماه في مدينة عسقلان قطعة من العذاب، ورغم إصابتي وسيري على عكازتين إلا أن ما يسمى بالنحشون أصرّ على أن يقيدني بالكلبشات من قدميّ، وعندما اعتليت البوسطة بشق الأنفس، وجلست على الكرسي

الحديدي جاء كي يقيدني من يدي، فأصبحت مقيد اليدين والساقين على كرسي الحديد، طول الجلوس عليه يخلّف الأمراض والأوجاع.

دخلت البوسطة سجن شيكماه، إجراءات صعبة وقاسية عند دخولنا، انتظار بلغ حدًا لا يطاق، نال مني التعب والألم عنوة إلى أن قام المحقق الأمني الخاص بالبوسطة وفحصها من الأسفل ومن الداخل، وتأكد من هوية الأسرى الذين تم نقلهم بالبوسطة، بعد هذه الإجراءات الشديدة في مدخل السجن؛ دخلت البوسطة تسير في شوارع السجن محدثة ضجيجا بصوتها المزعج، مرت بجانب غرف العصافير بدأنا نصرخ بصوت عالٍ من نوافذ البوسطة الصغيرة المغطاة بأسياخ الحديد والشبك كي نُسمع الأسرى في غرف العصافير تحذيرنا لهم من أنهم يحيون مع عصافير يعملون لصالح الاحتلال يمثلون أنهم شرفاء.

كنا نأمل من فعلنا هذا أن يسمعوا صرخاتنا، فيسلموا من الاحتلال وألاعيبه وأكاذيبه، سارت بنا البوسطة التي تقلنا نحن الأسرى الأمنيين ومعنا أسرى جنائيون يتبادلون تجارة الحشيش في البوسطة، فلا تشم في البوسطة إلا رائحة الحشيش والدخان والروائح الكريهة، يتقيؤون أحيانًا على أرضية البوسطة، وأحيانًا يملأ المكان بوضع غير صحي ولا طاهر لعدم تجاوب النحشون وإنزالهم لدورة المياه

توقفت البوسطة لدقائق عرفت من الشباب الذين كانوا معي أننا وصلنا، نزل النحشون وهو يحمل بين يديه ملفات حيث إن لكل أسير ملفًا خاصًا به، وعند كل عملية نقل من سجن إلى آخر يسلم ملفه الذي

يحتوي على تفاصيل كاملة عن الأسير وملاحظات من الإدارة أو العيادة، وتبقى هذه الملاحظات في الملف ولو مكث في السجن ثلاثين عامًا.

قام النحشون بتسليم ملفاتنا إلى إدارة سجن شيكماه، وبدأت إدارة سجن شيكماه بالتأكد من هوياتنا وصورنا بعد أن أنزلنا النحشون من البوسطة حيث تقوم إدارة سجن شيكماه بتشخيص كل أسير، ومن ثم تجبره على أن يدخل غرفة الانتظار، يصحبه في طريقه إلى الغرفة سجانان وهو مقيد اليدين والقدمين، يدخلانه في غرفة الانتظار ويغلقان الباب ويعودان كي يشخصا أسيرًا آخر، وهكذا حتى يتم تشخيص كل من في البوسطة الذين يصل عددهم إلى عشرين وأحيانًا أكثر، جميعهم يتم تجميعهم في غرفة واحدة.

بعد هذا السفر الطويل والشاق المنهك لأجسادنا المتعبة من زنازين المحتل. يبدأ المدخنون منهم يشعلون سجائرهم، بعد خمس دقائق ننظر في سماء الغرفة نجد سحابة بيضاء من الدخان، فنحن كأسرى مرضى نعاني، كنا نحاول أن نقف بجوار النافذة أو في زاوية بعيدة عن الدخان نوعًا ما، كنت أبقى لساعات حتى تأتي إدارة السجن وتأخذنا واحدًا تلو الآخر إلى التفتيش للتأكد من أننا لا نحمل شيئًا في أجسادنا.

أنهيت التفتيش، بعد ذلك أدخلوني على ضابط الاستخبارات؛ لأني نزيل جديد على السجن، وفي كل سجن يُرحل الأسير إليه يمر بنفس الإجراءات، سأل: «هل لك مشاكل مع أحد في هذا السجن؟»، وسؤال آخر: «عند أي فصيل تريد أن تدخل؟»؛ بالإضافة إلى: «بدناش مشاكل في

السجن» كأنه يريد أن يبلغنا بأننا نخلق المشاكل ونفتعلها، نحن جميعًا أبناء وطن واحد لا اختلاف بين الصاد ولا الضاد.

تم تسليمي إلى ضابط، وهذا الآخر سلمني فرشاة أسنان ومعجونًا ومخدة وحذاء وأمروا بإدخالي إلى السجن، حين دخلت السجن على عكازتي رأيت عالمًا آخر، حياة ثانية، فناء يدور فيه بشكل دائري أكثر من مائة وخمسين أسيرًا من كل بقعة في فلسطين، غزة والضفة والداخل المحتل، أسرى من لبنان وسوريا ومن الأردن ومصر وقطر، من ألمانيا، لم أعرف منهم أحدًا إلا من جاء إلى مشفى سجن الرملة، فتعرفت عليه وهم قلة من أسرى السجن البالغ عددهم ستمائة أسير وأكثر. وقفت بساحة السجن وأنا أمعن النظر بكل جانب وزاوية.

أحدهم كان يقرأ في كتابه، أغلق كتابه وأقبل يرحب ويعانق، من على الأسرّة العلوية يرحبون ويعانقون، من كان يتحدث قطع حديثه وأقبل يرحب ويعانق، وهذا الترحيب والعناق يقوم به الأسرى لكل قادم جديد.

تهافت الأسرى حولي لكي يسلموا ويرحبوا بي، كانت وما زالت هذه العادات التي يقوم بها الأسرى عند قدوم أسير جديد وعند ترحيله من السجن إلى سجن آخر، جاءني ممثل التنظيم الذي أنتمي إليه وعرّف عن نفسه وأخبرني عن رقم الغرفة التي ستؤوي هذا الجسد المتعب، اصطحبني إليها يحمل عني متاعي، فتح لنا السجان باب الغرفة وهو جالس في غرفة المراقبة ينظر إلينا من الكاميرات التي تملأ كل زاوية، يحدثنا من خلال السماعات والميكروفونات المثبتة في كل قسم.

تحلقنا حول الأسرّة التي تصطفّ ببعضها مشكلة بذلك شكل مربع ناقص ضلع مقابل بعضنا بعضًا، بدأنا بالتعارف، وكانت العادة أن يقدم الأسرى الأكبر سنًا لكي يعرف عن نفسه أو يبدأ جلسة التعارف احترامًا وتقديرًا له، تعرفنا على بعضنا شربنا الشاي والعصير تحدثنا قليلًا وبعدها كل منا قام إلى سريره يشغل نفسه بأمر ما، هذا على التلفاز وذاك على الراديو، وذاك يطبخ وهذا يستحم، وأولئك يستعدون للخروج إلى الفورة، وهذا يفكر بأمه وأهله وكثير من القصص.

هؤلاء الأسرى الذين جمعتني بهم تلك الغرفة كانوا هم الرفقة الأولى لي في سجن شيكماه، جميعهم الآن بعد اثني وعشرين عامًا قدّر الله لهم أن ينهوا محكوميتهم أو أن يتحرروا ولم يبق منهم أحد، وكان عددهم أربعة عشر أسيرًا إلا أنا وأسير آخر ما زلنا نرزح تحت ظلم الاحتلال.

جذب انتباهي في غرف سجن شيكماه تكدس عدد الأسرى في الغرف حيث وصل عددهم في بعض الغرف إلى عشرين أسيرًا كلهم في غرفة واحدة لهم (حمام) واحد و(دش) واحد، عشت بعد شهر في غرفة تجمع بين جدرانها عشرين أسيرًا.

بحال استيقاظي لكي أتجهز لصلاة الفجر أجد على باب دورة المياه أربعة من الأسرى ينتظر كل واحد منهم أن يأتي دوره لدخول الحمام، بعض الأسرى كانوا لا يستطيعون الانتظار، والبعض يستيقظ من النوم وقد بلغت به الحاجة أنه يريد الدخول سريعًا، لكنه يجده مشغولًا وينتظر على الباب ثلاثة أو أربعة من الأسرى أيضًا هم بحاجة إليه.

وتزداد المشكلة تعقيدًا عندما يكون من بداخله أسيرًا مريضًا، ونظرًا لمرضه يستغرق وقتًا طويلا، وتفاديًا للوقوع في هذه المشكلة كنت أستيقظ قبل أذان الفجر بساعة أو أكثر كي أجهز نفسي، ولكن مهما أخذت من الإجراءات لتفادي ذل الوقوف إلا أني أتورط أحيانًا بذلك خاصة عندما أستغرق في نومي.

أقرت إدارة السجن قرارًا بتفريغ السجن من الأسرى، وبدأت حركة الترحيلات من سجن شيكماه إلى سجون أخرى، وكان نصيبي أن أكون من أوائل الذين جاءت أسماؤهم للترحيل إلى عزل الانفرادي إيشل. مكثت عدة أيام بالعزل الانفرادي إيشل الذي كان وكر العذاب لا هواء ولا شمس ولا حياة بل مقبرة للأحياء.

عزل إيشل كان من أقسى أنواع العقاب الذي تمارسه إدارة السجون الصهيونية، زنزانة معتمة ضيقة قذرة ومتسخة، تنبعث من جدرانها الرطوبة والعفونة على الدوام، وفيها حمام أرضي قديم، تخرج من فتحته الجرذان والقوارض؛ ما يسبب مضاعفات صحية ونفسية خطيرة على المعتقل.

في ساعات الليل جاءني السجّان وأنا في الزنزانة يخبرني أني مرّحل من عزل إيشل إلى سجن شيكماه، مرة أخرى سرقت ابتسامة خفيفة بان ثغري وقلت: سجن شيكماه وإلى الغرفة التي كنت فيها التي تضم بين جدرانها عشرين أسيرًا، عشت فيها عدة أشهر كأنها سوق تعج بالفوضى، لكن سرعان ما اعتقلت أيضًا تلك الابتسامة، وأمر بترحيلي إلى العزل الانفرادي إيشل؛ ذلك نتيجة أسيرين سجينين في الغرفة المجاورة استطاعا قص أسياخ الحديد الكبيرة من الطابق الثاني سجن عسقلان والهروب في ساعة الإفطار في رمضان.

13

تم ترحيلي مرة أخرى إلى عزل إيشل، حملتني البوسطة من سجن شيكماه في مدينة عسقلان متجهة بنا إلى سجن إيشل في مدينة بئر السبع يتقدمها ويتبعها سيارتا حراسة، دخلنا السجن، أنزلونا من البوسطة بعد طول انتظار وبعد أن بلغ بنا التعب مبلغه أدخلونا إلى غرفة الزيارة، لكن ليس للزيارة، وإنما للانتظار مرة أخرى كي ندخل إلى التفتيش منهكين لا نستطيع المقاومة أو المعارضة.

بقينا فيها إلى ما بعد العصر ونحن الذين خرجنا من سجن شيكماه في السابعة صباحًا، جاء الحارس يريد أخذ العكاكيز بحجة أن هذه تابعة إلى

سجن شيكماه ولابد أن تعود إلى السجن، رفضت ذلك معللًا بأني لا أستطيع المشي دون الاستناد إليهما إلى أن جاءوني بعكازتين من سجن إيشل، بعد أن مللنا من الانتظار وبدأنا نصرخ على السجان ردّ علينا بعد ساعة: «انتظروا».

بعد هذا الانتظار «انتظروا» إلى أن أخرجونا واحدًا تلو الآخر إلى غرفة التفتيش، كان فيها عدد من الضباط والسجانين، كان التفتيش مملًا، ضربنا وعرينا من ثيابنا، كل من قاوم وعارض إجراءات التفتيش المذلة ضُرب وعري عنوة، أحد المشايخ من حفظة كتاب الله رفض أن يعرى من ثيابه قاموا بتعريته قسرًا وأخذوا يسحبونه على بطنه وهو عار واللكمات والركلات تنهال عليه، بقي أثر الضرب على أجسادنا أيامًا؛ ولكن ما أثار غضبنا ليس الضرب وحده بل الإهانة والتعرية أمام السجانين والضباط.

كانت هذه أول تجربة لي في العام الأول من السجن، كل من يمر بمرحلة التفتيش يأخذونه مقيدًا إلى حيث زنزانته ويغلقون عليه الباب، بعد أن تجمعنا جميعًا في القسم حدثنا بعضنا بما حدث لنا في التفتيش، كل واحد فينا كان يظن أن هذا الإجراء قاموا به معه فقط من دون الأشخاص، عشنا ظروفًا صعبة لا ترقى إلى حياة الآدميين، ومكانهم ضيق يحبس الأنفاس تكاد الزنزانة تعصرنا بين جدرانها، إذا صلينا جماعة لا نستطيع أن نقف بجانب بعضنا وكذلك لضيق المكان الذي لا يتسع لنا يتقدم الإمام وأصلي وراءه، لا خدمات صحية، العيادة تعطي وصفات فقط لا تعطي علاجًا، المعاملة من قبل الإدارة سيئة جدًا، لا تواصل مع الأهل لا زيارات للأهل، حيث كان الأسرى الجنائيون في الزنازين المجاورة لا يتركوننا ننام أو نرتاح من صراخهم.

وأنا في هذه الزنزانة اللعينة قررت أن أترك العكازات وأعتمد على نفسي خاصة بعد أن أخبرني مسؤول العيادة أن لا علاج طبيعيًا لي، واكتفى بوصفة طبية، طلبت من زميلي في الزنزانة قد دعوته بمشقة بالغة وكانت المرة الأولى التي أنتعل فيها حذاء منذ سنة منذ أن أصبت، منعتني تلك الأوجاع الصعبة والورم الذي يلازم قدميّ.

جاء السجان يفتح لنا باب الغرفة للخروج إلى الساحة، وكان الخروج إلى الساحة ساعة واحدة صباحًا وساعة مساء، خرجت بدون عكازات أمشي على قدمي اليمنى وأعرج على اليسرى، كان الألم شديدًا جدًا، تذكرت حينها ما جاد به المتنبي يوم أن قال:

رماني الدهرُ بالأرزاءِ حتّى

فؤادي في غشاءٍ من نِبالِ

فصرْتُ إذا أصابتني سِهامٌ

تكسّرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

إلا أنه لا اختيار لي إلا أن أعالج نفسي بنفسي استطعت أن أسير في اليوم الأول دقيقتين بدون الاستناد إلى عكاز، وفرحت لنفسي كثيرًا وقلت إنها بداية جيدة وأن طريق الألف ميل تبدأ بخطوة، وقررت أن أزيد في اليوم التالي دقيقة إضافية على الدقيقتين، وفي اليوم التالي استطعت المشي ثلاث دقائق بالمشقة النادرة، وهكذا بدأت أزيد في الوقت مع مرور الأيام وأصحح من مشيتي وأطلب من بعض الأصدقاء أن يركّز على مشيتي

لأستمع لبعض الملاحظات التي أعدل وأصحح بها مشيتي، وأقوم ببعض التمارين في الزنزانة من تدليك للقدم بالزيت والماء الساخن.

بدأت أدفع فاتورة هذا الجهد الذي أبذله في ساعات الليل التي يسكنها الألم، تندفع قدمي، أرفعها على المسند يستيقظ زميلي على صوت أنين وجعي وأنا يصعب عليّ حالي، لكنني رغم الألم والأوجاع والمشقة التي أكابدها إلا أني مصرّ على المشي وبشكل سليم.

لقد تعلمت المشي كالطفل الصغير الذي يبدأ المشي يستند إلى جدار ثم يمشي خطوتين، ثم يعود ليستند إلى جدار مرة أخرى، ثم يمشي ليتعثر فينهض من كبوته ليواصل المسير، أصبحت أخرج في كل فورة لأدرّب قدمي على السير وفي كل يوم أزيد فيه من وقت السير والتدريب الرياضي كي أبلغ مرادي، فأنا المراد، بعد عام واحد من التدريب خففت وقت السير خفّ الألم والورم وما عاد يظهر لي إلا عندما أبالغ في المشي والتدريب، وبهذه المهمة وهذا الجهد وتلك العزيمة استطعت أن أركض ساعة كاملة بدون توقف، وبعض الأيام أركض فوق الحبل ساعة وعشرين دقيقة، أعدت لهم العكازات التي رافقتني عامًا كاملًا متمنيًا أن تأتي اللحظة التي أتحرر منها فقد جاءت، والحمد لله.

قضيت أيامًا وشهورًا وسنوات في العزل الانفرادي «إيشل»: غرفة مظلمة بسوادها، ولا تزيد عن مترين، منعت من زيارة عائلتي أو الأسرى رفاق القيد والحديث معهم، كنت لا أرى النور إلا مرة ولدقائق معدودات في اليوم أو أحرم منه عنوة، وكلما خرجت للفورة ساعة واحدة محددة لي أكون مكبل اليدين يعاملني السجان حسب مزاجه.

بسجن إيشل منعت من تلقي الرسائل، من قراءة الصحف من الكتب من القصص، من سماع المذياع من سماع صوت نشيد أحدهم، من طرفة يرويها لي أسير، من كل شيء وكأنه يحاول طمسي، وكنت أقول بنفسي: عبثًا أيها المحتل ألا يكفيك تعذيبنا نفسيًا وجسديًا بتلك المقبرة، مقبرة الأحياء؟

أخذت أستثمر الوقت بالتدريب والتعليم والتمرين لكي أستطيع المشي كما كنت سابقًا.

هكذا كان الحال ما بين الترحال من سجن لسجن من تحقيق لتحقيق آخر، وكأننا دمى بأيديهم، سواءً السجن أو التحقيق، كلاهما أشد قسوة ومرارة.

من حقنا أن نبحث عن الحرية كما يبحث الحر عن مكملات الحرية، فنحن أيضًا أحرار، تفوقت إرادتنا وطموحنا على أمعائنا الخاوية، لا تستهوينا فكرة الظلم وتقبل الإهانة والسجن، تمردنا على كل شيء، وثرنا على الطعام والشراب حتى هزُلت أجسادنا، وما زلنا صامدين.

نحن نورٌ يضيء عتمة الاحتلال، نحن القضية والثورة، نحن الحرية والكرامة، مجدٌ متعلقٌ على أحبال عزتنا.

صامدون شامخون، نواجه الصباح بابتسامة شاحبة، ومعدة فارغة من الطعام سوى ماء وملح، ونقول: نحن هنا، بخيرٍ وقوة أكثر مما تعلمون.

نحن الجرح النازف الذي لا يُشفى، نحن وصمة العار التي تلاحق كل من أراد المساومة، والبوصلة الواضحة نحو فلسطين.

نداء نداء نداء، إلى من زُرِعَ حُب الدنيا في نفوسهم، إلى من يُنازع على مناصب تستهوي نفسه المريضة، ومن باع حُب الوطن لأجل المال، إلى أصحاب البطون الممتلئة بالملذات.

ها نحن كالجبال شموخًا، راسخون في أرض فلسطين، ننفر من الطعام والشراب إن لم يكن بطعم الحرية، ها نحن بأجسادنا المتعبة من زنازين المحتل، ننتفض في وجه الظلم والقهر، ولسان حالنا يقول: هيهات منا الذل، خذوا ما تبقى من عمرنا، لكن صوت الواحد منا يقول: هنا أنا صامدٌ شامخٌ لا أهابكم، فاقتلوا صوتي إن استطعتم، فاقتلوا صوتي إن استطعتم.

هذه مذكرات السنة الأولى التي قضيتها في سجون الاحتلال من ضمن الاثنتين والعشرين. كانت زاخرة بالأحداث التي مررت بها، وكم هي قاسية وشاحبة حياة السجن، كتبتها لكي يسجلها التاريخ علها تؤرخ فترة من الزمن ينتفع بها أحد، لعلها تسلط الضوء على معاناة الأسرى، ولاسيما المرضى منهم الذين اجتمع عليهم بلاء السجن وبلاء المرض، آملًا الفرج لهم قريبًا.

هم ليسوا أرقامًا؛ بل نبراس الكرامة.

ملاحق توثيقية

الأسير المحرر المريض/ مراد أحمد أبو ساكوت (29 عامًا)
أُفرج عنه بعد إصابته بسرطان الرئة، واستشهد في الأردن بتاريخ 13/ 01/ 2007م

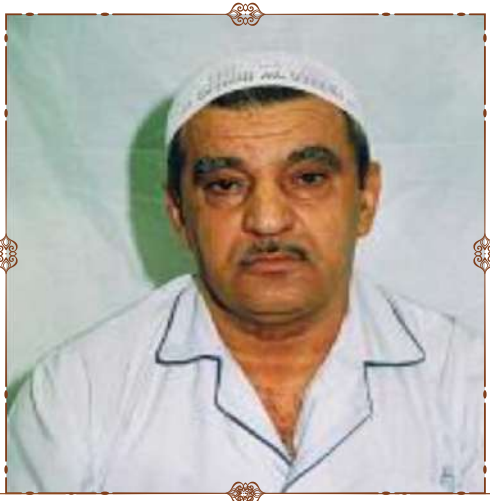

الأسير المقدسي الشهيد/ جمعة إسماعيل موسى (65 عامًا)
استشهد في مشفى سجن الرملة بتاريخ 24/ 12/ 2008م

الأسير المقدسي الشهيد/ محمد حسن أبو هدوان (59 عامًا)
استشهد داخل سجون الاحتلال بتاريخ 04/ 11/ 2004م

الأسير المحرر المريض/ سامي يونس (83 عامًا)
تحرر في صفقة وفاء الأحرار بالعام 2011م، وتوفاه الله بالعام 2015م

أسوار عيادة سجن الرملة في مجمع أيالون

أسير مريض في عيادة سجن الرملة

» تعريف بالكاتب الأسير

- **الاسم:** مراد فهمي حمد أبو معيلق.
- **مكان الإقامة:** مخيم النصيرات - محافظة الوسطى.
- **تاريخ الميلاد:** 1978/04/16م.
- **الحالة الاجتماعية:** أعزب.
- **الاعتقالات:** 1.
- **تاريخ الاعتقال :** 2001/06/17م.
- **الحكم:** 22 عاما.

الشهادات التعليمية:

- بكالوريوس تاريخ - جامعة الأقصى.

» في هذ الكتاب

مستشفى الرملة، لم تكن مستشفى كالمستشفيات المتعارف عليها، لا يوجد بها أطباء وممرضون مختصون وأجهزة طبية كافية، وما يحتاجه المريض لتلقي العلاج.

سجن بالفعل، إنه سجن نظرت في السجن من كل الاتجاهات، الكآبة تنبعث من كل أنحائه، أسلاك شائكة في كل مكان، كلاب ضارية، حراس في كل مكان، الحارس يفتش الحارس لا أمانة ولا حصانة لأحد، أسوار شاهقة، قسم الأسرى المرضى بسبب الإهمال الطبي المتعمد من قبل الاحتلال الصهيوني، قسم كسائر أقسام السجون الأخرى التي يتواجد فيها الأسرى الفلسطينيون، من يعالج هو نفسه الذي يغلق الباب ويضع القيد على يديك بدون رحمة مقيد الساقين لساعات طويلة على الرغم من أن معظمهم مصابون بأمراض مزمنة أعاقتهم بسبب الإهمال الطبي الذي يعتبر اغتيالا يسري ببطء.